يحدث فقط للآخرين ...

مجموعة قصصية

سعدية عبد التواب

إسم العمل: يحدث فقط للآخرين / مجموعة قصصية

الكاتب: سعدية عبد التواب

رقم الايداع : 2018/23653

الترقيم الدولي: 978-977-6056-80-0

التصحيح اللغوي والتنسيق داخلي الكاتبة والروائية: هنـاء عودة

تصميم الغلاف: محمد محسن

شهرزاد للنشر والتوزيع

جمهورية مصر العربية

القاهرة

هاتف: 01091744511

shahrazadpub@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر

وأي إقتباس أو تقليد أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

يحدث فقط للآخرين ...

إهداء ...

إلى ...

أبـي ...

إرتباط شرطي ...

لم يكن عبده بيه من زبائن القهوة مثلنا، فجلسة القهوة لنا كانت يومية ثابتة راسخة لا شيء يعطلها أو يؤجلها. عبده بيه رجلٌ ثلاثيني العمر"عبيط"معاقٌ ذهنيًا على ما يبدو، لم نكن نعرف عنه شيئًا.
كان من علامات القهوة الدائمة، والتي أخذت ـ من دوام وجودها ـ صفة العادية. يمشي ـ دائمًا ـ وهو يقدّم يسراه على يمينه فيما يشبه العرج، جسده مائلٌ للخلف دومًا.
نعطيه سجائر أحيانًا، و نطلب له أكواب الشاي.
يُهمهم دائمًا أو يصرخ بكلمات قليلة لا معنى لها، يأكل من هبات عربة الساندويتشات المجاورة للقهوة.
رصيف الشارع أنظف من ملابسه، وشعره وذقنه متربان مشعثان لا تعرف لهما لونًا !
غاب عبده بيه ثلاثة أيام عن القهوة، لاحظنا الغياب ولكن لم يتعد الأمر سؤالاً عابرًا عنه، لم يهتم أحد بالاجابة عليه.
عاد بعدها، فاستوقف أبصارنا جميعًا، كان يرتدي جلبابًا بني اللون جديدًا نظيفًا ومكويًا على أكمل ما يكون! وقد حلق شعره وهذّب ذقنه. سألناه ـ ساخرين ـ عن النظافة المفاجئة، وعن أين كان؟ ولم

يجب إلا بهمهماته غير المفهومة. وسرعان ما نسينا أمره وعدنا إلى اللعب.

بعد أسبوع كان عبده بيه "العبيط" يقف أمام القهوة يرتشف قطرات قهوة، ويلحس آخر الفنجان! وكان جلبابه قد عاد متسخًا مرة أخرى، وبدا إلى حدٍ كبيرٍ كما عرفناه دومًا.

ثم حدث ما جعل الحياة في القهوة تتوقف للحظة، زهر الطاولة تعلّق في الهواء! تخشّبت ضحكة كانت على وجه أحدهم وكأنه مات! وتوقف غليان الماء في العمّال!

مرت سيدة تسكن في العمارة المقابلة، ترتدي ـ مثل عادتها ـ ملابس محتشمة إلى الدرجة التي لا يمكنك أبدًا معها أن تعرف شكل جسدها! سيدة أربعينية العمر، أرملة وتعيش مع أمها العجوز.

ما إن التقطت عين عبده بيه "العبيط" السيدة؛ حتى هلّل في فرحة، ورفع جلبابه وأنزل ملابسه الداخلية، وأمسك بعضوه و لوّح لها به!

تجمّدت السيدة للحظة! نفس اللحظة التي توقفت فيها الحياة في القهوة، وقد تسمّرنا جميعًا، أما السيدة فقد انسحبت الدماء تمامًا من وجهها! فبدا في شحوبٍ لم أره أبدًا في حياتي. وكانت هي أول من تحرّك في الصورة المتصلبة تمامًا والتي تحتوينا جميعًا؛ نحن وهي وعبده بيه "العبيط" بعضوه العاري !

اندفعتْ إلى منزلها في هرولة من يهرب من الموت. وأفقنا جميعًا من دهشتنا، واندفعنا في ضحكٍ هستيريٍ دام لشهر. أبدعنا مئات التعليقات والنكات الساخرة على الموقف، وعلى أيام غيابه وجلبابه الجديد النظيف. وحاولنا لساعات مع عبده بيه أن نسمع منه شيئًا مفهومًا، ولكنه كان ـ كما هو دائمًا ـ خاويًا لاهيًا غائبًا!

حكايات كاذبة ...

ورثتُ حكاية جدتي ـ التي ماتت يوم عرفتْ بموت أمي ـ بأكثر من شكل، كلٌ منهم حكاها لي بشكلٍ مختلفٍ، فما قالته عمتي يختلف عما ذكره أبي. ولا يتشابه أي منهم مع ما حكته خالتي.

قال أبي ، إن أمي خرجت لشراء طلبات للبيت. عندما هبت عاصفة ثلجية، ووقعت أمى واختفت في الثلج، وخرج الجميع ليبحث عنها، ومنهم جدتي وأثناء البحث سطعت الشمس فذاب بعض الجليد. ملأتٍ منه جدتي كوب ماء وشربته، وقالت أحبكِ يا صغيرتي، ثم ماتت.

وحكت لي عمتي أن أمي كانت تقف أمام طاولة الكي المستطيلة، تكوي لي فستانًا صغيرًا به مائة زهرة ملوّنة، ولاحظت بعد قليل أن كل الزهرات اسودت من الحرارة وماتت. فحزنت أمي وبكت وسقطت دموعها على واحدة من الزهور، فعاد إليها لونها وحياتها، ابتسمت أمي وأخذت تتذكر كل الآلام في حياتها لتأتي بدموع كثيرة للزهور السوداء، بعد قليل ماتت، ربما من ثقل الذكرى. ولنفاد مخزون دمعها، أتت جدتي، وغضبت، أمسكت المكواة وحرقت من جديد كل

الزهور وأشتعلت النار في المكان وهي تمرر المكواة مئات المرات، ماتت في الحريق وهي تتمتم، انتقمت لكِ يا صغيرتي!
أما خالتى قالت لي أن أمي كانت تنظف المرآة من التراب بورق جرائد مبلل، ولكن التراب كان يعاندها وظل يرسم وجهًا لشخصٍ غريب، حاولت مرات أن تزيل التراب والوجه ولكنه كان يعود ليتكون بثبات مستفز، فضربت أمي الزجاج بيدها، وتهشم وجرح شريان فنزفت حتى ماتت .
وجاءت جدتي، وحاولت أن تعيد الزجاج المهشم إلى مكانه ظنًا منها أن أمي ستعود للحياة إذا عادت المرآة، ونجحت جدتي وجمعت المرآة وظهر معها وجه الغريب! شهقت جدتي فزعًا، وأدركت شيئًا عن جرح طفولة أمي النازف والذي كانت هي غافلة عنه، وأصابها الفزع بنوبة قلبية فماتت. وهي تبكي قائلة، لا تخافي يا صغيرتي!

لم أواجه أيًا منهم بأن الآخر حكى لي حكاية مختلفة، بقيت فقط أخاف الماء والنار والتراب. وأفر هاربة فزعًا مع كل وجه غريب!

الهوْل ...

فتحتْ هي الباب بحذرٍ وهدوءٍ، فانسللتُ للداخل كعادتي. التفتتْ لي بعد إغلاق الباب فرأيته، رأيت شيئًا مختلفًا في عينيها. وقبل أن أحاول تفسيره، أخذتني في أحضانها كعادتها، فنسيت هذا الشيء المختلف. وغرقت في جسدها، تارة وهي طافية فوق جسدي، وتارة وهي تختبئ تحت صدري .

وعندما همّتْ لشيء ما كنت مجهدًا وأريد أن أنام، أريدها أن تعود لأنام على ذراعيها ـ مثل عادتي ـ ولكنها دخلت الحمام وخرجت. رتبت أشياء على الطاولة! سمعتها تسألني وأنا أدخل تهاويم النوم الأولى: إن كنتُ جائعًا أو أريد شايًا؟ تنبهتُ فجأة وطار النومُ كلُّه من عيني؛ عندما التقيته مرة أخرى ذلك الشيء المختلف، التقيتُه في صوتها !

أعطتني ظهرها وكان لايزال عاريًا. وقالت شيئًا عن أنها لن تستطيع أن تأكل معي؛ لأنها تتبع نظامًا غذائيًا، حتى تكون لائقة في فستان الخطوبة. فرأيتُه بوضوح، رأيت الشيء المختلف في عظمتي كتفيها، وفي استدارة مؤخرتها، وفي انسدال ساقيها .

وفهمتُ، فهمتُ هذا الهوْل المختلف، لم أنطق حرف. التفتتْ لي تستطلع أمر صمتي، اقتربتْ وجلستْ أمامي، وعيناها ملء عيني. قالت أشياءً، قالت: إني أعرف عمرها. نعم، أعرف عمرها. عندما التقيتها منذ ثلاث سنوات كانت في الثلاثين وتكبرني بخمسة أعوام. وعمرها يكبرني الآن أيضًا بخمسة أعوام، لماذ لم يتغير الفرق بين عمرينا رغم مرور ثلاث سنوات؟ !

قالت أيضًا: إني أعرف أنها تريد بشدة أن تصيرَ أمًّا. نعم، أعرف .

لماذا تبدأ جملها كلها بأني أعرف؟ !

ولماذ الجو باردٌ؟

ولماذا الستارة مغلقة؟

قالت: إن أهلها يريدون أن تتزوجه؛ لأنه مناسبٌ جدًا .

من هو هذا الذي يريد أهلُها أن تتزوجه؟

ومن الذي كسر مقبض طاولة الزينة التي أمامي؟

ومن الذي رسم قلبًا على الحائط بجواري؟

قالت لي: تكلمْ. نظرتُ في عينيها؛ لأتعرّف أكثر على هذا الشيء المختلف، ولكنه اختفى! صادفني في المسافة بيننا رعبُها وانهيارُها وانهزامُها. لم تكن هناك دموعٌ، بل استسلام؛ استلامها لكلّ ما يمكن أن أفعله معها، وماذا سأفعل أنا؟

تهدّلُ خصلةِ شعرها واستقرارُ كفيها على رجليها؛ يؤكد أنها تعرف، تعرف أني سأضربها. يؤكد أنها تنتظر أن أضربها، يؤكد أنها تتقبل ـ برضا تام ـ أن أضربها!

غمرتني شفقة عميقة نحوها وأنا أنظر إليها، شفقةٌ لا يفترض وجودها ـ أبدًا ـ في قلب رجل تخبره زوجته أنها ستتزوج! نعم زوجته، حتى لو كان زواجًا عرفيًا، حتى ولو كان لقاؤهما خلسة في بيت أهلها وقت سفرهم !

سحبتها برقة، عانقتها، فملأتْ ذراعيها بي بعنف، وقبّلتني وأدخلتني جسدها ـ مثل عادتنا ـ وكأن شيئًا لم يكن! وجدتُ في جسدي وجسدها طاقةً لنفعلها مرة ثانية وثالثة. ليس فقط لأني كنت قادمًا من سفرٍ عمرُه خمس شهور، لم يكن بيننا فيه سوى مكالمات الهاتف. وكنت محرومًا من نهرها، وكانت محرومة من بذوري. ولكن ربما أيضًا لأننا نريد أن نقتل هذا الشيء المختلف، وأن ندّعي أنه لم يحدث. الشيء المختلف الذي التقيته مرارًا في صوتها في الشهور السابقة، ولكن لم أستطع أن أواجهه. رواغته، وأعتقدت أني بذلك قد أكون هزمته! ولكنه كان ينتظرني هنا، في نهديها وفي هستريا حركاتها وقت العناق، وفي رائحة فرجها. كان ينتظرني الهول، ينتظرني في حضنها.

بلا رائحة ...

لا أدري ماذا رأت في عيناي جعل الأمر يسير على هذا النحو، كانت ممتلئة الجسم قليلاً، شعرها فاحم السواد جميل، وأحمر للشفاة بلون واحد دائمًا يصبغ شفتيها، هكذا كنت أعرفها من صورها على الفيس بوك، عندما وجدتها أمامي فجأة في شارعنا تعتني بالحديقة المهملة، قالوا إنها الجارة الجديدة، في الصباح كنت أخرج مسرعةً لألحق موعدي، رأيتها منحنية في انهماك تغرس زهورًا جميلة بيدها، أثنيت على ما تفعله، عرّفتها بنفسي سريعًا، وقلت إني من متابعيها الدائمين على الفيس البوك، فرحتْ جدًا بما قلته، اعتدلت ونظفتْ الطين من يديها، بدتْ أقل امتلاءً من الصور، وشعرها أكثر جمالاً، وشفاة لها نفس الدرجة من أحمر الشفاة. قالت كلام عن أنها جديدة هنا ولا تعرف حتى الطرق، بعد دقائق كانت بجواري في التاكسي، حيث وجهتي التي لا تهمها كثيرًا، فكل شيء جديد لها ومثير، اتفقنا على أني سأمضي حضور فقط وننطلق بعد ذلك، تعجبت هي أني لا اهتم بحضور محاضرة في كورس خاص أدرسه. شرحت لها باختصار أن الهدف منه هو شهادة ستجعلني أخذ ترقية وعلاوة بغض النظر

عن استيعابي لأي شيء، لم تفهم تمامًا رغم أنى أعرف أن لغتي جيدة، فهمتُ أنها لا تستوعب الفكرة فقط، فغيّرتُ الموضوع .

فكرة أنها جالسة بجواري تملؤني سرورًا لم أعرفه من قبل، فكرة أن تكون فجأة مرافقًا لشخصٍ تابعت فنه ـ عن بُعد ـ لسنوات، جعلت الأمر يأخذ شكلاً ضبابيًا وكأني جزء من أحداث فيلم ما، أربكني الإحساس كانت رائحتها بلا رائحة، مثل الهواء خفيف غير مؤكد وباعث للحياة، أربكني الإحساس حد أني وصفت العنوان بشكل خاطئ للتاكسي، وجدت نفسي في مكانٍ مختلف تمامًا، خرجنا من التاكسي تعرّفت على المكان، انشغلت عنها بسؤال أكثر من شخص كيف أعود للمكان الذي أريده، عرفت أن المترو هو الحل الوحيد حتى أصل في موعدي، دخلنا المحطة وكانت في حالة فوضي شديدة، عرفت من الناس أن سائق أحد القطارات فجأة أخذ يجري بالقطار بسرعة كبيرة دون توقف لعشر محطات متتالية، وأن الأمر سبَّبَ ذعرًا وتدافعًا شديدًا أدى لإصابة البعض، كانت حكاية غريبة أخذت أسمعها من أكثر من شخص بتكهنات مختلفة، عن أن السائق له مطالب، وقال آخر إنه جُن، وحكايات أخرى غريبة .
إنشغلت عنها ولكني كنت أعرف دائمًا أنها معي برائحتها التي لا رائحة لها مثل الهواء، تأكدت أخيرا أني لن أصل في موعدي أبدًا، تضايقتُ

قليلاً لأنها كانت فرصتي الوحيدة لإنقاذ ذلك الكورس، بعد استنفادي كل مرات الغياب، التفت لها وجدتها تتابع كل شيء باهتمام ودون فهم؛ لأن الجميع يتكلم العربية! بدت غريبة عن الجمع، كطفلة ممتلئة الجسد، شعرها جميل فاحم السواد، وشفاة غليظة لها أحمر شفاة يزيدها غلظة، أخبرتها أني سآخدها لمكانٍ قريبٍ جميلٍ، وقفنا على بوابة المكان الأثري ننتظر التذاكر، جلسنا على مقعد حجري، ابتسمت بهيام في اتجاه آخر غير عينيها. سألتني عن سبب ابتسامتي، أخبرتها أن القدر يتحرك اليوم بشكلٍ غريبٍ وأن من ثلاثة أعوام كنت في هذا المكان والغريب أني فكرت يومها ـ بشكلٍ عبثي ـ من أحب أن يكون معي وسط هذا الجمال؟ وأخترتك أنتِ في حلمي، رغم أنكِ غريبة من بلدٍ بعيدة لا تعرفي عني شيئًا ولا يجمع بيننا إلا شغفي بتتبع فنك على الفيس بوك، أثرت فيها كلماتي جدًا ودمعت عيناها قليلاً. ضمتني إلى أحضانها فملأت روحي رائحتها التي بلا رائحة، وضعتْ خدها على خدي وكان ناعمًا جدًا كبشرة رضيع، قبّلتني قبلات متالية، في كل وجهي، صعقتني المفاجأة، كنت أريد أن أشرح لها، أني لا أقصد هذا الحب، ولكنها كانت منهمكة ومندفعة، والشفاة الغليظة تأكل الكلمات مني، انفعل جسدي معها، وتركت التفكير للحظة. غاب المكان، وكانت يديها تفك أزرار ملابسي.

وكنت أعي بشكل ما أني أصبحت نصف عارية، ولكن الأمر كان طبيعيًا جدًا وكأنه حدث مئات المرات معي، أفقت على صوت أحدهم كان ضابطًا ينبهنا برقة أن تلك الأشياء لا تصح هنا في الشارع، نظرتْ هي له بضيق طفلة قال لها أحدهم ممنوع اللعب هنا، ونظرتُ له أنا شاعرةً بغربة، كانت الصور مشوّشة، هل حقًا أنا عارية، هل الرقيق هذا ضابط، كان من المفروض أن يكتمل المشهد بفضيحة، ولكنه كان مهذبًا معنا يستأذن فقط في أن نكف، ربما لأنها خوجاية، وربما لأننا لسنا حقيقين، كلنا أبطال في حلم إحداهن التي تستيقظ في الصباح متعجبة وهي تعد قهوتها من الحلم ومن مصدره، هي التي لم تكن تفكر أبدًا في الجنس مع امرأة، هي التي تشعر بخفة الآن، مثل إمرأة إلتقت بحلوة ممتلئة بشعرٍ فاحم، ورائحة بلا رائحة.

نصف حياتي ...

(1)

عندما جاءتني تلك المكالمة من المستشفى كنت نائمًا، استيقظت على صوت أحدهم يخبرني أن مدام سناء في المستشفى وتريد أن أذهب لها، سألت المتصل ببلاهة: مدام سناء مين؟

رد الرجل سريعًا: سناء جابر، مستشفى المعادي. ثم أغلق الخط دون أن يضيف كلمةً واحدة.

كنت في هذه اللحظة استيقظت بشكلٍ كاملٍ وعرفت سناء قبل عبارته الأخيرة؛ لأني لا أعرف في حياتي سوى سناء واحدة، مدام سناء جارتي زوجة أستاذ مجدي، لكن لماذا هي في المستشفى؟

ولماذا تطلب حضوري أنا؟

وهل أستاذ مجدي ليس هناك؟ ولماذا المعادي؟ المعادي بعيدة جدًا عن هنا .

قمت من سريري واتجهت للحمام وأنا أردد، بعيدة جدًا بعيدة فعلاً.

(2)

فكرت وأنا أقود سيارتي في اتجاه المعادي في أول مرة قابلت فيها مدام سناء، أو بالأصح مدام سناء وأستاذ مجدي، كنت انتقلت إلى القاهرة مؤخرًا لفرع شركتي الجديدة مع ترقية لم أكن أتوقعها ولكنها جاءت في موعدٍ قدري؛ لأغير مكان إقامتي ومدينتي وعنواني وقلبي الذي أرهقه حبٌ بلا أمل .

مدام سناء وأستاذ مجدي هم جيراني في الشقة الجديدة الإيجار؛ التي منحتني إياها الشركة كاملة التأثيث والخدمات، حدث هذا منذ ما يقرب من عام ونصف، لم يعد شيئًا جديدًا الآن، أصبحت القاهرة مدينتي، وفرع الشركة حياتي ومستقبلي. ومدام سناء وأستاذ مجدي نصف حياتي الجديدة.

أتذكرهم الآن كما رأيتهم لأول مرة مدام سناء وأستاذ مجدي على الرغم من العشرة جعلت منهم سناء ومجدي هكذا بدون ألقاب، إلا أني لا أستطيع منذ أن جاءتني تلك المكالمة الغامضة من المستشفى أن أتخلص من الطريقة التي كنت أناديهم بها في أول تعارفنا، مدام سناء وأستاذ مجدي .

بدت لي سناء عندما رأيتها لأول مرة أكثر ودًا وترحابًا من زوجها مجدي. فقد كانت هناك ابتسامة دائمة تزين وجهها القمحي المستدير،

على عكس مجدي الذي بد لي ـ أول مرة ـ غير ودود بوجهٍ طويل وشعر خفيف وعيون زجاجية بلا تعبير !

الغريب في الأمر أن مجدي ـ رغم هذا الوجه ـ كانت عباراته الموجهة لي دائمًا كلها ترحاب ودعوة لتعارف وصداقة، بينما ظلّت سناء رغم الود والترحاب في ابتسامتها الدائمة علاقة حيادية لم تقترب يومًا مني، بقت على مساحة الود الأول للتعارف، ولم تمتد أبدًا لتكون أكثر عمقًا أو انفتاحًا معي. ربما يكون هذا هو سبب تعجبي من طلبها لي في المستشفى التي لا أعرف ـ أساسًا ـ سبب وجودها فيها!
مجدي وسناء في أواخر الأربعينات. وكنت أنا في عمر الثامنة والعشرين عندما انتقلت إلى القاهرة، لم يكن لي أصدقاء أو معارف؛ لذا رحبت بالتعارف بيني وبين جيران الشقة المقابلة.
التعارف الذي بدأ بأكلات طيبة من يد سناء لشاب صغير غريب عازب لا يعرف الطبخ، التعارف الذي امتد حتى صار طقسًا يوميًا لابد منه، أن أقضي من ساعة لساعتين في شقتهم وأن يكون مجدي صديقًا لي فعلاً على الرغم من أنه يكبرني بما يقارب العشرين عامًا.
الحقيقة إن سيكون هناك التباس لو حاولت تصنيف علاقتي بسناء ومجدي، ربما ألجأ لكلمة أصدقاء لأنها الأقرب للإطار العام، لكن وأنا أتأمل علاقتي الآن بهما بسبب المكالمة أرى أن الأمر كان فيه الكثير

من الأبوة والأمومة من طرفهم، تفاصيل كثيرة أتذكرها الآن لم يكن لدي أبدًا الوقت أو الانتباه الكافي لأقف عندها. فقد كانت الأحداث في العمل والحياة الجديدة أسرع من أن تجعلني أقف لأتامل علاقة لم تكن ترهقني في شيء، بالعكس فأنا أرى الآن كم كنت متورطًا معهم في علاقة بنوة دون أن أشعر !

سناء كانت مسؤولة دائمًا عن وجباتي وإدارة بيتي ومتابعة السيدة التي تأتي للتنظيف، وكانت تشاركني في الاهتمام وتذكرني وتأخذ المال مني لدفع الفواتير الشهرية للكهرباء والماء وصيانة المصعد وغيرها، حتي أنها كانت تجري بالنيابة عني مكالمات الشكوى لخدمة العملاء عندما ينقطع الإنترنت، وكنت أتناول وجبة رئيسية كل يوم من صنع يديها .

ومجدي سهّل لي مشاكل كثيرة بعلاقاته، وقضينا ساعاتٍ في مناقشة مشاكل عملي الجديد والتواصل مع زملائي ومرووٴسي. وكان ينزل معي ليعرّفني طرق وشوراع القاهرة، ويطمئن كل يوم على أحوالي المالية ويعنفني دائمًا لكثرة التدخين .

كيف لم ألاحظ من قبل أنهما يتعاملان معي وكأني ابنًا لهم، بل كيف لم ألاحظ كل شيء متعلق بهم رغم أنهما أهم شخصين في حياتي منذ وصولي القاهرة، كيف تسرّب إلى روحي عادة الأخذ منهم وكأنه حقٌّ مكتسب لي لا يستدعي أن أنتبه له، كيف تلقيت كل تلك الرعاية المعنوية والروحية دون أن أتاملها !

سناء ومجدي زوجين منذ كانا في أوائل العشرينات، رزقهم الله بعد زواجهما بخمس سنوات بطفل، ولد جميل رأيت صوره ولم أره؛ لأنه مات قبل أن أظهر في حياتهم بثلاث سنوات. مات في حادث سيارة وهو في الثالثة عشر من عمره، لا أعرف تفاصيلًا كثيرة عن هذا الولد الغائب، ربما لأنهما لا يتكلمان عنه كثيرًا .

وربما لأني دخلت حياتهم بعد أن كانا تجاوزا فاجعة الفقد والخسارة. وانتظمت حياتهم بشكل هادئ في روتين معتاد ما بين عمل كلٍ منهما. والجلوس في البيت، وأخيرًا الاعتناء بالجار الشاب الغريب الذي بصدفة اكتشفت الآن أنه كان أنا !

ربما كان هذا الفقد الذي لم ألحظه هو الذي جعل علاقتهما بي تأخذ هذا الشكل، ربما كنت تعويضًا ـ دون أن ألاحظ ـ عن الابن المفقود! بقيت أتأمل علاقتي بسناء ومجدي وكانت هي الشاغل الوحيد لأفكاري طوال طريقي للمعادي؛ حيث سناء هناك في المستشفى. لكن كل الاكتشافات الجديدة التي توصلت إليها الآن بشان علاقتي بهم لا تجيب عن الأسئلة التي طرحتْ نفسها مع لحظتي الأولى لاستقبال مكالمة المستشفى، لماذا هي في المستشفى؟ ولماذا تطلب حضوري أنا ؟ وهل أستاذ مجدي ليس هناك ؟

ولماذا المعادي؟ المعادي بعيدة جدًا عن هنا .

(3)

عندما وصلت عند سناء كانت نصف نائمة، تأملت شحوب وجهها الشديد وشعرها متوسط الطول الهائش على الوسادة، ومحاليل مُعلّقة في أوردتها ويتدلى منها كيس أسترة، وكيس آخر مليئ بالدم. انتبهت وفتحت عينيها وابتسمت ربع ابتسامة، شعور بالشفقة الطاغية ملأ قلبي بشكلٍ مفاجئ وحب لم أفهمه على الرغم من كل المعلومات الغريبة التي سمعتها من الطبيب قبل دخولي لها .

قلت: عاملة أيه يا سناء؟

ردت: الحمد لله .

تحدثنا كلمات قليلة، وأنا على استعداد أن أبذل أي شيء من أجل أن ألغي ما حدث، وأن يعود كل شيء كما كان، وأن تعود سناء لبيتها مع مجدي؛ الذي كنت أراه بيتًا قويًا مليئًا بالهدوء والاستقرار والرضا على الرغم من فاجعة ابنهما .

تركت سناء وعدت إلى السيارة، ولكن كيف سأرى البيت الآن؟ وكيف سأتعامل مع مجدي؟

سناء طلبت مني أن أبلغه بطريقتي وأن أخفف وطأة الأمر. كيف أقول له إن سناء طريحة الفراش، دون رحم بعد نزيف حاد نتيجة خطأ في عملية إجهاض؟

ماذا أفعل يارب؟
وكيف تقبلت ببساطة كلمات سناء الشاردة الرهيبة التي كانت تقولها ببساطة: عن إنها لم تكن تعرف من أبو الطفل، وهي تضيف بنظرة خاوية أنه يمكن أن يكون أي رجل يمشي في الشارع.
أرخيت رأسي على دركسيون السيارة واندفعت في بكاء عنيف لا أعرف سببه! بكاء عدت منه ضائعًا تمامًا، لا أعرف إلى أين أذهب!
وكأني فقدت الطريق في القاهرة، واحتاج مجدي ليقول لي كيف أعود، وأحتاج سناء لتصنع لي وجبةً لأني لم آكل حتى الآن. وأحتاج بيتهما حتى لا أبقى هائمًا في الشوراع دون بيت.
بعد عدة ساعات كنت مع مجدي، كان قلقٌ جدًا لغياب سناء المفاجئ، أخبرته أنها كلمتني وأنها مريضة في المستشفى.
انزعج بشدة وأخذ يتكلم بمفرده: عيانة ليه؟ عندها أيه؟ ليه مكلمتنيش؟ هي فين؟
وأسئلة كثيرة أجبت عليها باختصار وتوقعت أنه سينهار مع الإخبار، صمت قليلاً ثم أخذ يقول بتركيز شديد: كنت عارف أنه هيحصل

حاجة. هو قال لي، بس مكنش ينفع أمنعها، مكنش ينفع غير اللي حصل، بس هو وعدني أنه هياخد باله منها، إزاي حصلها كده، لازم أتكلم معاه، هاتخانق معه جامد !

الحيرة جعلتني أنسى كل توتري سألته وأنا مرتبك: كنت عارف؟ كنت عارف كل حاجة إزاي ومين ده اللي بتتكلم عليه؟

رد: ابني أيمن، هو موجود متصدقش إنه مات، هو بيجي لي أنا ونقعد نتفق ونتكلم بالساعات، هو اللي قال لي على اللي سناء بتعمله، وكنا متفقين يحميها وياخد باله منها .

لا أعرف كيف بدا وجهي، ولكنه نظر طويلاً لي وقال لي: صدقني أيمن موجود ، علي فكرة هو بيحبك جدًا، وقال لي إنه هيحاول يحل لك المشكلة الاخيرة بتاعة الشغل، على فكرة هو دايمًا بيكون قاعد معانا حتى وأنت هنا .

قلت ـ وأنا لا أستطيع منع دموعي: طبعًا طبعًا ياريت، أيمن أخويا وأنت أبويا، يلا بقى بينا علشان نروح نجيب سناء من المستشفى .

مررت من الصالة وهو متأبطٌ ذراعي وأنا أشعر أني سأعود بعد قليل بسناء ومجدي وأيمن، وسنجلس في الصالة كالمعتاد نحن الأربعة؛ لأن شيئًا لم يحدث إلا أني اكتشفت فجأة أن لي أبًا وأمًا وأخًا هم الآن كل حياتي.

المانيكان ...

في بلدة ما، الظروف الاقتصادية جعلت الحياة غريبة، ولجأت الناس إلى حلول عجيبة للتعامل مع الأزمة، شحت المادة التي يتم صنع المانيكان منها، المانيكان الذي تُعرض عليه الفساتين والبدل والملابس الداخلية، وزدات سعر تلك المادة بشكل جنوني، فلجأ اصحاب المحلات إلى حل أرخص كثيرًا، شخص حقيقي يقف مكان المانيكان ، ثابت دون حركة، أجور البشر في تلك الفترة كانت أقل بكثير من سعر المواد الخام!

فُتنة كانت واحدة من الفتيات المحظوظات اللاتي تم قبولهن في ذلك المحل الكبير في المنطقة التجارية لتكون مانيكان .

كانت مرتبكة في اليوم الأول للتدريب مع سيل التعليمات عن كيف تكون مانيكانًا ناجحًا، الكثير من الكلام عن الثبات، الجمود، الصمت، ثبات العين، التنفس بهدوء، نظرة حيادية بلا معنى، التجرّد من الإحساس باليد، التعوّد على الوقوف لساعاتٍ طويلةٍ. ولكن مرت

أيام التدريب على أي حال، وشعرت فُتنة أن دعاء أمها التي ماتت السنة الماضية مازال ساريًا في السماء .

وقفت فى فاترنية عرض الدور الثاني بمفردها، وهي ترتدي فستان زفاف، شعرت فُتنة مع الساعات الأولى براحة كبيرة لبعد العيون عنها بمسافة كافية، وقالت في نفسها إن الله يعلم بحالها، وإنها كانت ـ في الغالب ـ لن تحتمل أن تكون في فاترينة العرض في واجهة المحل، قريبة إلى هذا الحد من العيون المشاهدة بنهمٍ بتطلعٍ برغبةٍ للفستان وليس لها، بعيدة عن الأطفال وبولات الآيس كريم ورنين الهواتف المحمولة.

مضت أيام هادئة كثيرة مملة وهي تقف وحدها عاليا في الفاترينة، كل أسبوع يتغير موديل فستان الزفاف الذي تعرضه، حتي جاء يوم ودخلت الفاترينة فوجدت مانيكان آخر سبقها ويستعد للوقوف، مانيكان شاب يرتدي بدلة زفاف رائعة، تجاوزت الصدمة، وقفت سريعًا في ركنها، وهو فى الركن الآخر ثابت صامت بنظرة عين محايدة.

(علي) المانيكان الجديد كان أقدم من فُتنة بعدة شهور. رغم ثبات مظهره باحترافية إلا أنه التقط لون عين فُتنة البني، وعرف أنها بالتأكيد أصغر منه بعدة سنوات .

في الأيام التالية فُتنة شعرت بالونس في وجود علي الصامت، وأدركت أن وحدتها العالية لم تكن أحسن الحلول في تلك المهنة كما كانت تظن، واستطاعت بذكاء أن ترى ـ رغم ثباتها ـ أن شعره مجعد قليلاً. وعرفت أيضًا أنه أطول منها بسنتميرات قليلة.

في الشهور التالية حدثت أشياء عجيبة لم تكن مرت ببال فُتنة وعلي أبدًا، لغة ما نمت في المساحة بينهما وأتقن كلٌ منهما حروفها جيدًا، لغة كاملة أوجدت حوارًا شيقًا بينهما، عرف كلٌ منهما عن الآخر كل شيء، حكى لها وحكت له، برف الرموش، وحركة الأصابع، ببلع الريق، باتجاه القدم، بتنهيدات، ببل الشفاه، بصوت دقات القلب، بعراك الأمعاء، بطقطقة الركبة، بعدد الدموع الشفافة، بعدد الشعر الطائر مع نسمة الهواء، بدرجة لمعان الأسنان، برنين الأظافر، بحشرجة الأنفاس، بقطرة دماء، بكل شيء تحدثا، وبلا صوت أصبحا حبيبًا وحبيبةً في فاترينة عالية في منطقة تجارية صاخبة، في مدينة يعمل فيها البشر مانيكان بصمت وفقدان الإحساس بحركة اليد!

كانت فُتنة تصر أنه يجب أن ننتظر، دائمًا يجب أن ننتظر، قالت لننتظر حتى نتعارف جيدًا، لننتظر حتى نجمع المال للزواج، لا مجال للقاء خارج الفاترينة لننتظر حتى لا ينفضح أمرنا، وخضع علي

لطلباتها وانتظر أشياءً وأشياء، مكتفيًا بحديثهما اليومي طوال 12 ساعة عمل كـ" مانيكان " صامت .

في ليلة من شهر من سنة ما، شبّ حريق في المحل التجاري، اندلعت نيران عنيفة في الدور الأرضي، تحرّك علي وفُتنة، نظروا أمامهما من خلال الفاترينة وجدوا الجميع تجمهر أمام المحل، ومحاولات كثيرة للإطفاء. حاول علي وفُتنة فتح باب الفاترينة للهروب، ولكن الباب مغلقٌ من الخارج والمشرف هو من يفتحه بعد انتهاء العمل. شعرت فُتنة بذعرٍ رهيبٍ وهي ترى الدخان يرتفع عاليًا أمامها، حاول علي كسر الفاترينة ولم يستطع. صرخت فُتنة وارتمت في حضن علي، ضمها وشعر بملمس كتفها العاري في فستان العرض. شيء كالصاعقة كان وقع ملمس بشرة فُتنة الرقيق على أصابع علي، كانت تبكي في حضنه وهو يمر بأصابعه مرات ومرات على نفس موضع الكتف الرقيق، شعر بها تهدأ بين يديه وتنتظم أنفاسها .
خف ضجيج الناس بالأسفل وهم يحاولون إطفاء النيران، رفعت فُتنة عيون ساحرة مميتة ذائبة لعلي، وقالت ـ بصوت يسمعه علي لأول مرة: ماذا سننتظر ؟

بكى علي وهو يخلع عن فُتنة فستان العرض، بكى وهو يرمي بدلته أرضًا، يبكي وهو يقبلها، بكى وهي عارية بين عينيه، قالت: أريد أن أسمع صوتك .

قال: النيران لن تاكل قلبي؛ لأنه يحبك !

يحكي أن النيران التهمت المحل التجاري كله، وأن محتويات الفاترينة العليا، احترقت تمامًا ماعدا بدلة وفستان الزفاف وجِدا أرضًا في حالتهم العادية! وتحكي الأسطورة أيضًا أن أحدًا لم يجد علي وفُتنة بعدها أبدًا!

الراوي العليم...

الخفة التي اكتشفتها في فكرتي جعلتني مترددًا حائرًا، إجابتي الدائمة لا أعرف، الخطأ الكبير الذي اكتشفته في طريقة تصنيفي للناس، جعلت الجميع مجهولين بالنسبة لي، عوالم مغلقة أكثر من اللازم، لا شيء بسيط أو عادي أو مكرر، التفرّد مطلق، أو هكذا أصبحت أشعر به، أصبح فسيحًا أكثر من قدرتي على الاحتواء، صحرواي أكثر من كل الماء المتاح، ضبابي أكثر من شبورة صباحية تقف كسدٍ هلامي ستمنع حتمًا في أن أصل إلى الجانب الآخر!

الحكايات التي كنت أمتلك ناصيتها كراوٍ عليم، أصبحت في ظل معرفتي الجديدة، رموزًا معقدةً، كيف أرويها، هل أحكي ما حدث تفصيلاً، أم أحكي الذي لم يحدث، ومن سأكون في الحكاية، متفرجًا عابرًا، أم أحد أبطالها الأساسيين، وأي سطور أو حكي له قيمة إذا اكتشفت فجأة، أن المسيح لم يكن سوى فكرة عابرة في رأس غانية ما.

الحكاية الأولى، تحدث في أتوبيس عام، فتاة في أوائل العشرينات ومعها طفلة تقل عن العامين على يديها، ومعهما امرأة بدينة نسبيًا،

ترتدي نقابًا أسودًا، يقفون حيث لا مكان في الحافلة للجلوس، تعرض إحدى الجالسات على الفتاة أن تأخذ منها الطفلة، تجيبها الفتاة بابتسامة تبدو طيبة ورقيقة مثلها، بأن الطفلة لن ترضى بسواها. تأتي محطة، فينزل بعض الركاب و تجلس المرأة المنقبة، وتأخذ الصغيرة من الفتاة، بعد لحظة يفرغ كرسي آخر فتحث السيدة الفتاة على أن تسرع لتحلق بالكرسي في الأمام، وهذا ما تفعله الفتاة فعلاً، بعد لحظات من حركة الحافلة تدفع السيدة بالطفلة خطوات قليلة في اتجاه الفتاة، وتخبرها بصوت عالٍ أن الطفلة تريدها، بدا الأمر أول الحكاية للراوي العليم؛ أنهن أم وابنة وحفيدة، سيتكشف ـ بعد قليل ـ له؛ لانه ليس بكل شيء عليم. أنهن أم وأختين، وذلك عندما تعود الفتاة بعد دقائق قليلة حاملةً الطفلة لتقف أمام كرسي أمها تتشبث بالمقعد مع اهتزاز الحافلة، وتخبر الأم أنها قامت حتى تجلس سيدةٌ كبيرة، تبدأ الأم في تعنيف البنت لتركها كرسيها: وأنتي تقومي ليه؟! أنتي قاعدة وشايلة عيلة إزاي تقومي؟ !

تجيب البنت: يا ماما بقولك ست كبيرة وتعبانة قوي، حرام !

تجيب الأم بنفس الغضب: حرام! طيب خليكي واقفة ومسكاها بقى، مش هاخدها منك. ترد البنت: طيب! تصمت الأم لحظة، ثم تعود الأم لتتكلم بغضب: أنا مش عارفة إزاي تقومي؟! ترد البنت ـ وهي

محرجة: خلاص يا ماما ملكيش دعوى، مش أنا اللي واقفة! الأم ترد عليها بصوت أعلى: طب اتكلمي عدل أحسن أهزّءك أكتر من كده !

تصمت الاثنتان لباقي الطريق. الأم جالسة والبنت واقفة تحمل الطفلة السعيدة بكل شيء، لا يبدو شيءٌ على وجه الفتاة سوى نظرة دائمة خارج الشباك، والأم لا شيء يبدو عليها، لأن كل شيء خلف نقابها، بعد أكثر من نصف ساعة، تحاول أحد الجالسات أن تأخذ الطفلة من الفتاة، فترد الأم إنها تتركها لها عقابًا لها لأنها تركت كرسيها، (وعلشان تتعلم لما تتعب).

تنزل الأم وابنتها بعد ساعة من الحافلة في محطتهما، وظهرهما لكل من في الحافلة، أين الراوي العليم؟! ماذا يعرف عن حقائق هذا الحدث العادي، هل يلوم الأم على قسوتها، هل يعتبرها شريرة لأنها لم تشجع الفتاة على فعل الخير، أم سيرى أن الفتاة كانت تستحق هذا العقاب فعلاً، على طيبة وسذاجة لا محل لها في هذه الحياة، هل لاحظ هو أن السيدة التي قامت لها الفتاة ليست كبيرة كما قالت، بل هي تقريبًا أربعينية عادية في سن أمها المنقبة؟! هل عندما لاحظ هذا رجّح الأمر لقلة خبرة البنت التي ترى في سيدة أربعينية شخصًا متعبًا يستحق التعاطف؟ أم سيعرف السبب الحقيقي أنها كانت مجرد حجة لتعود الفتاة لتقف بجوار أمها؟ هل سيرى الأم الآن غبية، لم ترَ حاجة ابنتها

للبقاء قريبة، حتى أنها لم تحاول الجلوس بعد ذلك رغم أن الفرصة أتيحت أكثر مرة، هل يمكنه أن يخمّن سبب رغبة الفتاة هذه، هل هو مجرد خوف عادي لفتاة لا تخرج إلى الشارع كثيرًا، هل رأى الراوي يدًا ما كانت تمتد خلسة من كرسي خلف الفتاة، متسللة ما بين المقعدين إلى مؤخرة الفتاة؟ هل يستطيع أن يجزم الراوي العليم أي تلك السيناريوهات هو الحقيقة؟ ومن البطلة الطيبة ومن الشريرة في هذا الحدث العادي البسيط المكرر؟ لن أحكي باقي الحكايات، لن أملك الحقيقة يومًا، لن أكون أبدًا ذلك الراوي العليم.

لقيمات مشبعات ...

عندما أجلس في بهو الدار الكبيرة التي أنتمي إليها أشعر بالفخر والقوة، وأترحم على الجدة التي بنتها، وأقرأ لها الفاتحة. في الدار يسكن أهلي، وأعمامي وزوجاتهم وأبناءهم وأنا وأبي .

إن أمي لا تسكن درانا، أو بالأصح سكنت فترة قصيرة قبل أن أعي أنا، أمي الحسناء كما يقولون، الفقيرة كما يقولون، تزوجت أبي ابن العائلة الكبيرة وهي في السادسة عشر. لم يعرف الناس وقتها من يحسدون، أبي على حسن أمي وفتنتها، أم أمي على ثراء أبي وهيبته على الرغم من حداثة سنه هو الآخر.

من الواضح آنهم حسدوا الاثنين وأنا معهم جنين مجهول تكوّن في رحم أمي ليلة الدخلة، بعد تسعة شهور عندما ولدت، كنت جميلاً مثل الأم، بُهرت الجدة التي أقامت من أجلي الولائم سبعة أيام. كانت أمي بعد ساعات من ولادتي تقوم بدورها المعتاد في خدمة البيت بأمرٍ من جدتي، ووسط العمل الشاق، وبجوار أمعاء ذبيحة من ذبائح مولدي، سقطت أمي فاقدةً الوعي .

أستطيع أن أصف المشهد كأنني كنت هناك من حكي العمات وزوجات أعمامي، أمرت الجدة بالكمادات ولم تزد، رفضت أن يدخل البيت طبيب. بعد ثلاثة أيام من حمى النفاس جاء حلاق القرية وقدّم لأمي لبخة وشرابًا مُر الطعم. بعد أسبوع وقد تحوّلت الحمى إلى صراخٍ وعويلٍ، حمل أبي جسد أمي بين ذراعيه وجرى رغم عن أمه التي لم يعصها أبدًا، وتقول العمة الكبيرة إنه كان يبكي. أصابت الحمى أمي بخللٍ في عقلها. فردتها الجدة إلى أهلها، وطلّقها أبي. وبقيت لا أعرف أمي !

ولكن أذكرها قليلاً، وهي تمر أحيانا من أمام أرضنا الواسعة، لم يكن ذلك لتراني. فإنها لا تعي بوجودي، كانت تمر ضمن رحلتها الهادئة الذاهلة كل يوم في القرية، تبتسم ابتسامة واسعة وتحدّث أشخاصًا وهميين برقة، كان جنونها أليفًا خفيفًا طاف معها في الأرض والسماء .

عندما ماتت أمها التي كانت ترعاها وتنظف ملابسها وتجدل لها شعرها الطويل، ضمتها إحدى الجارات الفقيرات إلى بيتها، وتقول الأسطورة إن الذي في الأعالي أمر أن تكون كل لقمة في هذه الدار مشبعة مائة مرة أكثر من أي لقمة أخرى !

وبقيت أمي على حالها تطوف القرية وإن كان تغير حالها تغييرًا ما، قل كثيرًا جمال ملبسها، وبقى شعرها مشعثًا معظم الوقت وعيناها البنية الواسعة بها أثار نومٍ وعماصٍ دائمًا. ماتت بعد موت أمها بثلاث سنوات، وكبرت أنا ناسيًا حكايتها معتزًا بأهل أبي وبجدتي وبعراقة أصلي.

لم يتزوج أبي بعد أمي وساءت علاقته كثيرًا بالجدة وبقى من وقتها على عادة شرب الخمر والبكاء طويلاً ليلاً. ولكن في النهار بقى على حاله في العمل والالتزام ورعاية مصالح الأرض والبيت .

كنت حبيب الجدة، والمفضل عندها، ملكتُ الحياة بأمرها. وإن كانت تنتابني أحيانًا رغبات غريبة أن أغني غناءً حزينًا، أليمًا جدًا وأن لا أكف، ولكني لم أفعلها ولا مرة !

في التاسعة عشر، خطب لي أبي فاطمة الساحرة ابنة الجيران، كنت رائعًا ثريًا لي هيبة مثل أبي وخاطب لأجمل البنات. في أحد الليالى قال لي عبد الله صديقي حكاية لم أسمعها من قبل، حكى لي أن الكبار يقصون فيما يقصون بينهم حكاية عم إبراهيم الذي أخرجوه وهو يلهث من فوق جسد أمي عندما علا صراخها من بين عيدان القصب.

غضبتُ وتركته، ثم هدأت وقررت أن أنسى الحكاية، عم إبراهيم هو أبو فاطمة حبيبتي، وأمي تلك أنا لا أنتمي إليها.

بعد زواجي من فاطمة بأربعة أعوام وهي حامل في ابني الثاني، كان عمي إبراهيم يتناول العشاء عندنا هو وأسرته، وكنا نضحك ونأكل البط والحساء الساخن يسري في دمائنا فننسى الشتاء والبرد .

انطلق في لحظة وجاء من صدى بعيد ما غناءٌ حزينٌ، أليمٌ جدًا، وكنت أعرفه، كنت أنا هناك أغني، شعرت بألمٍ عنيفٍ في حلقي. كان يجب أن أتحد مع الصوت حتى يزول الألم، وقمت وأنا غائبٌ عن الوعي حملت وعاء الحساء الساخن جدًا، ووسط دهشة الجميع أفرغته على عضو عم إبراهيم العاري بعد أن رفعت الجلباب عنه، خرجت وتركتهم يصرخون. التقيت بالصوت، واندمجنا، وصرت أطوف القرية أغني ليل نهار، وأناجي في طوافي السعيد لقيمات مشبعات بمائة مرة أكثر من أي لقمة أخرى!

وشوشات ...

موعدنا الليلي هناك هو قطعة البسبوسة بالقشدة التي تكافئني بها الحياة، في يوم صاخب مليء بالأحداث والبشر والوحدة - رغم الزحام؛ أتعجل الساعات لنلتقي.

لتبدأ اليقظة الحق، والنشوة الحق. الليل الذي يسترنا هو الوحيد الذي يعرف سرنا. غضبت منه اليوم عند الصباح، التقطت أذني وأنا أحاول فهم الوجود الصباحي حوارًا بين عصفورين كانا يرويان أشياءً عن ليلتنا السابقة ويضحكان.

وعرفت أن الواشي بنا هو الليل! هنأت نفسي أني أخفيت عن الليل سر معرفتي للغة الطيور والأشجار والبحار والأنهار والحيوانات والرياح والأمطار. لم أقل له إني تعلّمت علم الأصوات من سيدنا سليمان؛ عندما التقيته في حلم استدعيته في أيام من الرهبنة والنقاء. فكرت كيف أحكي لك عن فعلته دون أن أضطر إلى أن أفشي لك أنت الآخر سري الخفي؛ عن قدرتي على فهم الأصوات .

ربما هذا هو السر الوحيد الذي أخفيته عنك؛ لأسباب تتعلق بطبيعة أنثوية غريزية في إخفاء أشياء عن رجلها؛ أشياء مثل انكسار قديم، حلم مؤجل، نقود ادخرتها للزمن، أو مشاعر مستورة بغطاء الخجل.
أخفيته أيضًا لرغبتي في الاستماع إلى أحلامك الليلية وأنفاسك وكوابيس عمرك؛ التي اعتدت التلصص عليها دون أن تدري أنت! خطيئة تعاقبني عليها السماء بشكل لحظي، فالتلصص عليك لم يكن يمنحني دائمًا الخبر الأجمل. أحيانًا كنت أحترق من حلمك بحبيبة سابقة، وأموت عندما تحمل لي دقات قلبك يأسًا أسود! وأتغرب إذا كان لأنفاسك رائحة الضجر مني، ولكني واصلت ذلك بغريزة تعذيب الذات.

عقدت النية على أن أتواطأ مع الليل، وألا أخبرك بفعلته. وقد استراحت روحي لفكرة أنه لن يكون هناك ضرر من وشاية الليل؛ حيث لا أحد ـ غيري أنا ـ سيسمع همس العصافير علينا وتغامز قطرات الندى.

سمعتك ـ كعادتك ـ تلقي تحية المساء على الليل بطيبة أصابتني بإحساس موجع بالذنب، كان يلزمني أن أتخفف من حمل ذنبي. كان من الضروري أن أتطهر قليلاً، فصنعت من دموعي شربات لتحلية

قطعة البسبوسة، أثنيت أنت على حلاوتها برقة، وأطرقت أنا برأسي فرحًا، وأسبلت عيني من إحساس خزي شديد المرارة. ابتسم لي الليل في محبة، فألقيت بالحذاء في وجهه وأطفأت النور.

تفاحة الجاذبية ...

مريحٌ جدًا أن أتخلى عن كل المثاليات والخير وأن أعلن أني أكرهك، ببساطة ولذة أرددها همسًا وأنا بمفردي ونسيمٌ عليلٌ يداعب وجهي ورجلي العاريتين تمامًا. الدور الخامس عشر يسمح لي بذلك، أدخل البلكونة وقد سترت النصف الأعلى من جسدي، وتركت الأسفل حرًا يتنفس هواءً نقيًا، ربما يبدو الحكي عن نقاء الهواء وجماله عبثي مع إعلان كرهي لكِ، ولكن الهواء أصبح أكثر عذوبة عندما نطقتها، عندما أخرجتها من قلبي هي ودمعتين، لا أريد أن أراكِ، كلّما خرجتي من دائرة يومي وذاكرتي أنساكِ ولا أهتم، يهدأ الحقد. أفكر في حالي وما لي، وألملم من أيامي لحظات سلامٍ داخلي، كل السلام يذوب مع ابتسامتك، أريدك باكية ناعية اليوم والأمس، لا أكتفي بأحزانك العابرة التي شهدتها، ربما لأني بعد ذلك رأيت ابتسامتك تعود بسرعة صفاء سماء شابة بعد المطر، ألمس صورتك على الهاتف واضغط بعنفٍ في عينيكِ، عندما أرفع أصبعي أجد كل شيء كما هو لم تنزل دموع من الضغط، فأرمي الهاتف وأنا أبكي !

التورط، والمزيد من التورط، أغرق في كرهك مثل رمال متحركة لا أستطيع منها فكاك، من قبل كان الإحساس حبيسًا في قلبي، واليوم

رددتها على لساني، على أثر مكيدة لكِ، لم أخطط لها وجدته تقع في حجري مثل تفاحة الجاذبية، أنا فقط دهنتها بسائلٍ لزج، حتى يسقط عليها الذباب ويبقى، ووضعتها في وجبتك مستورة، فلتتذي يا إنسانة، متى ستحزني، تهزمني سعادتك، سأرتاح إذا انهرتي، سنة كاملة ربما تكون كافية لي، وربما أبدأ بعدها من جديد.

اليوم انتقلنا إلى مرحلة جديدة، كنت أنكر كرهك فيما مضى، لا سبب معقول يمكن أن أصيغه وأبرر به إحساسي، كنت أكثر من الطيبة معكِ لا لتصدّقي أنتِ مودتي، بل لأصدّق أنا تلك المودة، ولكنك لم ترحبي أبدًا بودي لكِ، يا ملعونة، كشفتي قلبي قبل أن أكشفه أنا، حاولتُ أن أضعك في منطقة الحياد، ولكن اليوم لا، أنا أكرهك، وسأترك كل طاقتي السلبية لتغمرك .

رغم إيماني أن الحقد يأكل صاحبه، رغم عدم سوابقي في الحقد، إلا أنني - وبكل صدقٍ - أحسدك، وويلك من عين امرأة لم تحسد أحدًا من قبل!

كنتِ حلاً لمشكلة عميقة، كنتِ مجرد أداة، كنتِ اختيارنا، كنتِ نجدة لنا، كنتِ الستارة التي وضعناها أمام الشباك لتسترنا، ولتحجبنا عن عيون الناس وهمسهم، ولكن الستارة لا تضحك،

الستارة ليس لها أسنان بيضاء. الستارة لا تدهن شعرها بالكريم، الستارة لا تلبس قميص نوم، الستارة لا تُطالب ولا تُطلَب، ولا تعد حفلات وتسعد بها، الستارة لا تأكل الكاجو، ولا تحشو الممبار، الستارة لا أبناء لها، أكرهك لأنكِ لم تعودي بعد تلك الستارة!

زوجة أبي، هل جال بخاطري يومًا أن أبي سيحتاج زوجة، تقول أختي الكبرى لي - في إجازتها السنوية، وقد لاحظت أن قلبي غير صافٍ لكِ - إنه ربما يضايقني أنها أخذت مكان أمنا المتوفية منذ زمن، قلت لها ربما، وأنا أعلم أني كاذبة! لم يكن أبي يحتاج زوجةً بعد وفاة أمنا، كنّا خمس بنات حوله، ومرّ العام بعد العام، وتزوجت البنات، حتى أنا تزوجت أخيرًا في السادسة والثلاثين من عمري، ولغرابة القدر كلنا سافرنا خارج البلد. كنت أخرهم، وقتها ظهر السؤال ماذا نصنع بأبينا ذي السبعة والخمسين عامًا؟!

لم نجد الإجابة، وظل وحيدًا.

بعدها بستة أشهر أجرى لنا خمس مكالمات دولية، وأخبرنا فيها بزواجه!

قال إنها أرملة، لها ابن، قال إنها بنت حلال، قال إنها صغيرة لم تبلغ الثلاثين، لكن لها عقل رزين، تضايقت قليلاً ثم تعقّلت، وقلت ست

غلبانة وتخدمه، ونسيت بعد قليل وانشغلت في توأم رُزقت به قرب الأربعين.

عندما عدت في أول إجازة لم أكن منتبهة كثيرًا لرؤيتها مجرد شيء أضيف للبيت.

وبعد يومين من الإجازة انكمشت داخل نفسي من عنف وجودها الأنثوي!

أعمل منذ كنت في العشرين، أكلت مني ـ كالوسواس الخنّاس ـ سنين شقاء وعنوسة. ما كنت أقدّر حجم الأشياء التي لم أحياها إلا عندما رأيتها، بحثت داخلى عن اسباب كرهى لها ،وجدت أكثر من سببٍ غير مقنع لكرهها؛ هي التي تحمل أبي فوق رأسها، ولم أتفهم أبدًا السبب، هل يمكن أن أكرهكِ فقط لأنكِ أصبى! لأن ضحكتك دائمة، لأن ابنكِ مراهقٌ جميلٌ مثلك، هل يمكن أن أكرهك فقط لأنك ست بيت يصرف عليكِ رجلٌ، وهو ما لم يحدث لي أبدًا من قبل؟!

تاتو ...

الحكاية لم تبدأ من عينه، لا تأخذك الأفكار وتظن أنها حكاية حب لأني ذكرت عيونه، في الحقيقة إنها حكاية، إممم، يصعب عليا تصنيفها، فليكن، إنها حكاية مجرد حكاية، ولم تبدأ من عيونه، ولكنها بدأت من عند الكتف، تحديدًا عند التاتو المرسوم في الكتف، ليست قصة التاتو هي المشكلة، فلقد رأيت الكثير منها من قبل، المشكلة كانت، لا ليست المشكلة، البداية كانت، لم تكن البداية، لِنقُل إن العقدة كانت في كلمات التاتو، في الجملة التي يقولها التاتو، هل كانت تقول حقًا، هل يمكنني أن أردد تلك العبارة حقًا:

"You are not my dad"

أشعر بعري مفاجئ كأنه يعلم بسري، الشاب العصري في دراجته البخارية بوشمه عند الكتف، يعترض مواعيدي ويلاحق التفاتاتي كلما طلبت من أحد أن يقوم بعمل ما، كنت سأتجاهله ـ كالعادة ـ وربما كنت سأوجّه له كلمات جافة ـ كما اعتدت. هل لاحظ أحدٌ تعرّقي، هل الجو حار، ما الذي كنت أود قوله؟

"You are not my dad"

المرأة التي تربطكما بحبل واهٍ قد ماتت ورمت بك للاسئلة. كبر سنه وزيجته في صباه البعيد لم تسفر عن أبناء، يربكك بطيبته وشيخوخته الهادئة، ويقيدك بصمته وأبوته الحاضرة، لكنك تعرفين، لكنه يعرف، والوشم أيضًا يعرف.

اليوم يأخذ دورته المعتادة، أسابق الشمس حتى أنهي تصوير المشاهد المطلوبة، أمضغ حبات حلوى بطعم جوز الهند حتى أستمر. بعد مروره، بعد الوشم، رفعت رأسي للسماء، وواجهت الشمس دون أن أغمض عيني، النور الباهر في عينى يقول الحق، دماؤك لا تهم أحدًا، هذه الأرض لا تحفل بكِ، الأمس مثل الغد، والوشم لا يقصدك إنها مجرد صدفة، سحبتني يد المخرج من الشمس لأنظر إليه غضبًا، رأيت رأسه سمكة قرش، والوجود محيطًا بلا نهاية، وكان نزيف أنفي هو أخر ما شعرت به، قبل أن أسقط فاقدةً الوعي.

تخبرني الممرضة حين بدأت أفيق أن عدة أشخاص جاءوا بي للمستشفى، ولكنهم رحلوا تباعًا ولم يبقَ إلا هو، تغمزني قائلة: "شكله بيحبك أوي، ربنا يسعدكم!" لا أعلم عمن تتحدث لم أحب أحداً يومًا، أوقعت نفسي في حب الذين أخافهم، أحببتهم حتى أحبوني، كنت أظن حينها أنهم لن يقوموا بإيذائي، لم يفعلوا، لكنني فعلت!

جسدي ثقيلٌ وعيناي تعبتان من الضوء، مروره يحجب الضوء قليلاً، أفتح عيني ببطء، أراه بملابس التصوير، أقابل الوشم على الكتف، "You are not my dad"، هل عليَّ أن أحبه الآن؟!

عقلي يذهب فلاش باك، أتذكر الآخر، الذي قابلته في أول الحياة ـ في أول العمر ـ يوم مسك نهدي بقوة وغضب وقال: جلدك هذا سوف يشهد عليك !

يومها أخذ الجاكت بعصبية من على الأرض ولبسه بينما كنت ألملم جسدي بعيدًا عنه، وقف وأكمل كلامه: جلدك وسمعك وبصرك. نظر لي وكأنه ينتظر شيئًا، وكأنه سيلقي يوم القيامة في عيني الآن.

إنتظر هو وأنا كنت جامدةً، ألقى نظرةً أخيرة خاوية على جسدي وخرج، انتفضتُ وهو يغلق الباب بعنفٍ خلفه، بكيت ليس لأنه صرخ، ولكن لأن القيامة لا تقوم حقًا متى نريد ذلك.

كل يوم بعد ذلك بجديد منه، ذقن لا يمسها الموس، غياب بالأيام، يده لا تسلّم على يدي، وعيناه لم تستقر أبدًا في عيني من بعدها، وكأنه يخشى أن يقابل الأرض بعد ما خذلته السماء في عيني،

اعتزل التمثيل نهائيًا وأمرني بأن أترك التصوير وإلا، وإلا ماذا؟ ليكن بيني وبينك حجابٌ إلى يوم الدين، هكذا كتب لي على الواتس آب، وكتب لا أريد شقاق، ولكن لله الملك والغفران، ولا أقبل معه أندادًا، وإني لكي الآن نذيرًا، اختاري فريق الجنة أو فريق السعير!

كلما تذكرته أحس بألمٍ مكان قبضته، كان يحب جسدي وكان يقول إنه يحبني، هل كرهه لحد إيلامه أم أراده لحد آلمه هو، أمي التي أطعمت المرض جسدها على مهل، كانت تخبرني أن أتزوج عن حب، وتشيح بوجهها كأنها لا ترى أحدًا، كأنها تطعم أوز أمام بِركة، العشرة والحب بعد الزواج محض خرافة. وكانت تحكي لي حكاية وحيدة عن فتاة تزوجت الغول، ونذرت بعد عشر سنوات أن تمنح نفسها قبلةً واحدةً بشغف، أن تقبّل رجلاً كما تحكي الحكايات، القُبلة التي أحيت سنو وايت، القبلة التي تُبطل السحر وتغير القدر، نذرت أن تنسى أبناءها العشر من الغول وتقبّل رجلاً بكل ما يمكن أن يحمل جسدٌ من حبٍ ورغبةٍ وتوقٍ، وأنها مضت تحكي لأبنائها 10 حكايات مختلفة لعشر سنوات أخرى؛ حتى حان وقت زواج أولهم فتغيرت الحكايات العشر عن الحكايات العشر، حتى انمحى أثرها.
عندما قررتُ القطيعة، قال: لا يهم! واختفى سنتين والأخبار تأتي عنه متقطعة، كلها عن عزلته عن تدينه عن الدرويش الذي يتبعه.

قابلته في عزاء صديقٍ مشتركٍ، بدا لى أنحف وأكثر وسامة، مشى بجواري هادئًا، كنيلٍ يسري على مهل، قال ـ دون أن يرفع عينيه إليَّ: قلتِ إنكِ تريدين أن تتحدثي معي، لكنكِ صامتة، هل يمكن أن أساعدك بشيء؟

بدت لهجته رسمية، ولكن بها ظل ودٍ لا أعرف إن كان مصدره أدبًا أم حنينًا، قلت له ـ دون ترتيب: هل أنت سعيد؟

تمتم بكلمات في سره ولم يُجب، فكّر قليلاً ثم رفع رأسه ونظر لي ـ لأول مرة منذ وقفت بيننا القيامة في ذلك اليوم البعيد ـ فسمعت وشوشات النيل، قال: هل تريدين أن تعرفي حقاً؟

أجبته وأنا مأخوذة بشوقٍ إلى عينيه دون أن أفهم جيداً: نعم .

هل تعرفين ماذا كان يطلب مني أبيكِ حتى أستمر في العمل في أفلامه، حتى يوافق على علاقتنا، حتى لا أجد نفسي ضائعًا بلا عملٍ للأبد؟

انتبهت لكلامه فجأة، وفهمت دون أن يكمل، جاءت كخيول الموت، جاءت كل الشائعات التي سمعتها عن أبي يومًا، جاء حرمان أمي وهزال روحها إلى صدري فورًا، سحب هو عينيه مني وهو يكمل، كان يطلب الحب وأردف ساخراً، كان يقول: أنا مثل أبيك.

أجبته ـ دون وعي: وبماذا كنت تجيب؟

قال ـ وهو يعطي ظهره لي راحلاً مني، ساعيًا إلى مجهول ـ قلت له:
."You are not my dad

معمول لها عمل ...

تتذكر وهى طفة عندما كانت تأتيها نوبات إغماء غريبة، عندما تقف في طابور المدرسة صباحًا لتحية العلم؛ فيهاجمها الدوار ببطء ومعه رائحة عطر نفاذة، ثم لا تشعر بنفسها إلا وهي في سرير يحاولون إفاقتها. تكررت تلك الاغماءات مرات عديدة، وذهبت بها أمها إلى أكثر من طبيب، والجميع يؤكد أنه لا شيء هناك سوى ضعف عام وأنيميا. وكانوا يعطونها فيتامينات بينما لا تتحسن صحتها، عندها اقترحت طنط أم علاء ـ جارتهم ـ على أمها؛ أن تأتي لها بشيخ ليفك عنها، فربما تكون مسحورة، أو معمول لها عمل!

وعلى الرغم من أن أمها لا تقتنع كثيرًا بهذه الأمور، إلا أنها وافقت على أي حال. تم ترتيب زيارة الشيخ على أن تكون هذه الزيارة في بيت طنط أم علاء. ونامت وهي تتخيل شيخًا يرتدي عمامة مثل المقرئ الذي يأتي بعد انتهاء الإرسال بالتلفاز وهو يقرأ القرآن، ولكنها فوجئت في اليوم التالي برجلٍ نحيفٍ يرتدي بدلة كاملة، وهو يبتسم لها على الدوام.

كان أمامه بخورٌ، أمسك يديها وطلب منها أن تكتب له اسمها واسم أمها على صفحةٍ بيضاء ليس بها أي كتابة. ثم أخذ منها الورقة ومرّرها

برفق مرات من خلال الدخان المتصاعد من البخور، وعندما انتهى أعطي الورقة البيضاء لأمها؛ التي نظرت إليها ثم شهقت. أخذتها منها طنط أم علاء بفضولٍ وشهقت هي الأخرى! نظرتْ رضوى بحيرةٍ إلى الرجل ووجدته يبتسم، وطلب من أم علاء قراءة الورقة فارتعشت يديها ولم تستطع. فأخدت رضوى منها الورقة وهي لا تفهم ماذا عليها أن تقرأ والورقة بيضاء خالية إلا من اسمها واسم أمها! ولكن عندما أخذتها وجدت أن كتابة قد ظهرت بها، حيث إنه مكتوب عليها: "مخطئة، ولكن محفوظة لا تخافي."

كانت مبهورة تمامًا وهي تسمع الرجل يشرح لأمها؛ أن رضوى قد مرت ـ بالصدفة ـ على سحر ما ليست هي المقصودة به، ولكن طفولتها حفظتها منه، وأوصى بأشياءٍ عديدةٍ، مثل: أن تستحم بعطر ما في صلاة الجمعة، وأن تبقي الحجاب الذي سيصنعه لها في رقبتها دائمًا.
كان الرجل لا يعلم أن ما فعله بالنسبة لطفولتها يعد شيئًا فوق العادة! سألتُ أم علاء عنه وفهمتْ منها أنها تعرفه للانها سمعت من الناس انه الشيخ الذى كانت تتعامل معه زوجة أبيها.

وتذكرت هي على الفور ما تقصه أم علاء دائمًا عن زوجة أبيها. فلقد تزوجها منذ كانت أم علاء طفلة، ولم تكن طفلته الوحيدة، بل كان له

ستة من الصبيان والبنات. وفتح الله عليه في تجارته وأصبح ثريًا، وسمعت من أم علاء أن زوجة أبيها تلك نصبت الشباك حوله. وكانت في ذلك الوقت امرأة في أواخر الثلاثينيات من عمرها، حيث كانت أرملة ولديها أربع بنات. ففعلت كل شيء من أجل الإيقاع بالتاجر الثري ـ على حد قول أم علاء ـ إنها استخدمت في ذلك أنوثتها وجمالها المتمركز في بشرتها البيضاء، واستخدمت السحر أيضًا! عملت له عمل، هكذا قال الجميع وقتها، وإلا ما الذي يجعل رجلاً يتزوج امرأة بأربع بنات يتكفل بهن! وتحكي أم علاء حكاياتٍ غريبةً عن طفولة بائسة قضتها مع زوجة الأب تلك، حتى أنها حاولت الانتحار ذات يوم، وكان ذلك في أول زواج الأب من تلك المرأة. حيث أسكنها في شقة زوجته الأولى ـ والدة أم علاء، وأسكن الأولى وأولادها الستة في شقة ضيقة - تكاد تكون بدرومًا - في نفس العمارة. وانتهت علاقته فعليًا بزوجته الأولى دون طلاق، والتي ماتت بحسرتها بعد سنة من زواجه! وبقي أولاده - تحت - تصب عليهم زوجة أبيهم الجحيم فوق رؤوسهم. كانت تحتفظ بكل الطعام والملابس لها ولبناتها وتلقي إليهم الفتات وما يفضل منهم، لقد سيطرت على الأب سيطرة كاملة؛ تفسرها دائمًا أم علاء ـ متحسرة ـ بأنها لا تكون إلا بفعل الجان!

وحتى تحكم قبضتها على كل شيء؛ أنجبت من الرجل ولدين وبنتًا، بل وزوّجت الابن الأكبر للرجل وذراعه اليمين في التجارة لأكبر بناتها.

وأصبحت هي الآمر الناهي، وتكاد الحسرة تقتل أم علاء ـ على الرغم من مرور كل تلك السنين ـ وهي تتذكر كيف تمتعت بنات زوجة أبيها بخير الأب، في حين انحرمت هي وإخوتها منه! وتكاد تبكي وهي تحكي عن جمال الشوار الذي جهّزت به كل بنت من بنات زوجة الأب، وعن بؤس شوارها هي وأخواتها البنات. ولكنها تحكي ـ بفخر وإيمان أيضًا ـ عن أن أمها قبل موتها قد دعت على زوجة الأب هذه ألا تفرح أبدًا وهي تزوج بناتها، وألا تهنأ وتسعد بهن أبدًا! كما تحكي أم علاء أنه ـ بشكلٍ درامي غريب ـ انقلبت أفراح البنات الأربعة إلى خناقات ومشاجرات لأسباب مختلفة. حتى إنه في أواخر عمر زوجة الأب تلك، وهي تزوّج ابنتها الأخيرة ـ التي هي أخت غير شقيقة لأم علاء من الأب ـ انقلب الفرح إلى معركة كبيرة، وكادت العروسة أن تصاب. كانت أم علاء تقص عليها كل هذا وهي امرأة في الأربعين، ولكن مرارة الطفولة الكئيبة لم تكن تبرح وجهها أبدًا وهي تقص هذه الحكايات.

ظلت على انبهارها طويلاً بهذا الشيخ الذي زارها، وغلبها فضولها بعد فترة ففتحت الحجاب ووجدت فيه كلمات لم تفهمها، فرمتْ الورقة وظلت تلبس الحجاب وهو لا يحوي شيئًا؛ خوفًا من غضب أمها. توقفت نوبات الإغماء بعد فترة، وهي تعرف ـ الآن ـ أنها توقفت ربما من طول استخدامها للفيتامينات، وأن هذا الرجل لم يكن سوى

دجال. وقد عرفت ـ بالصدفة ـ بعد فترة تفسير الكتابة على الورقة، وكان ذلك عن طريق حيلة بسيطة؛ حيث تتم الكتابة باستخدام قطرات ليمون لا تظهر، وعندما يمسها البخار تظهر!

كما أنها سمعت ـ بعد سنين طويلة ـ أن الشيخ رفعت مات مقتولاً، نظرت إلى صورته في الجريدة التي أعطتها إياها أم علاء وهي تحكي لها الخبر، وتذكرتْ شكله. حيث جاء في الخبر أن حفيده المراهق المدمن قتله لسرقة مبلغ مالي بسيط، وأن المجني عليه كان يزاول أثناء حياته أعمال السحر والنصب والشعوذة.

نصف العالم...

العروق المتصلبة في جبينه ـ وقت الانفعال ـ تجعله حقيقي لدرجة مخيفة، هو خيالي، وهي خيالية، فلِمَ التصلب؟! بينهما نافذة ذات زجاجٍ مترب، يعدها بالعودة، يكرر القول، تتصلب عروقه أكثر وهو يطالبها بالرد؛ ترد وكأنها في حلم أنها ستنظره! وقبل أن يذهب بعيدًا، يدق بعنفٍ مرتين على النافذة بينهما؛ فيتناثر بعض التراب ولا يدخل عينيها المتجمدة في اتجاهه!

لو فكّكنا الكلمة إلى حروف، ستفهمنا أحسن، الجيتار أيضًا يمكنه أن يكون مؤثرًا أكثر لو عزفت عليه بالمقلوب، الفتيات يرتدين الوردي منذ الأزل، والأشخاص العصابين ينتهجون نفس السلوك منذ الأزل. عندما رحل هو بعدما نثر التراب أمام عينيها، دخل في تجربة وبدا الأمر محتملاً، وتذكّر دعاء أمه: "ربنا لا تدخلنا في تجربة!" فعرف أنها فاتها الكثير .

أصبح حرًا أكثر ومنتجًا أكثر بعد أن حرّرته التجربة، كان مخلصًا، بنى معبدًا للفكرة، وسعى من أجل نشرها، أوحى أداءه لأحدهم أن يرسم

لوحة له، فقد كان وجهه هادئًا على عكس ما كان، ولكن جسده لايزال على حافة الانفجار. ضحك الرسام كثيرًا وهم يشرحون السر، ضحك حتى دمعت عيناه؛ عندما قال الآخر: إننا ـ نحن؛ أنا وأنتم مصدر الوجود!

بعد سنوات تذكر فجأة الحبيبة التي تركها وراء الزجاج، خرج دون ترتيب، ترك وراءه معلمه والمريدين، وركب سفينة وذهب إلى بيتها. أخبرته أمها أنها أصبحت زوجة وأمًا، وأنه رحل طويلاً. سألته: أين كنت؟ أجابها: كنت مسافرًا جُبت نصف العالم. لم يكن فخورًا، ألقاها وهو ساهم يفكر أن اسم حبيبته تحوّل إلى اسم زوجها، ردّد الاسم في ذهنه، ثم خرج.

لم يحتج إلى أن يجوب نصف العالم الآخر؛ ليعرف أن تحرره كان كاذبًا، وأن معلمه كان مجرد دجال! اكتفى بأن نظر إلى عينيه طويلاً ـ عندما استدعاه إلى زيارة بعد عدة أعوام؛ ليعرف أن كل ما مضى لم يكن كافيًا لينجو من مصير أمه؛ التي كان تحاول التملّص منه بدعائها: ربنا لا تدخلنا في تجربة!

جروح سطحية ...

جمعت قدرًا ما كافي من المال وهربت من القوّاد الذي أعمل معه، ذهبتُ إلى مدينة ساحلية بعيدة، قصصت شعري جدًا، أحببت نفسي، شيء كالتحرر الزائف يتحرك معي، استأجرتُ حجرةً في شقة مع آخرين، لم أهتم أن أنظر لهم جيدًا، في الساعات الأولى، انفجرت ماسورة ماء وكنت وقتها أفرغ حقيبتى، جريت باتجاه الصوت وجدت أحدهم يلعن صاحب الشقة الذي خدعنا، وآخر يطلب أن يأتي أحدهما بشيء؛ لنسدّ الماء حتى لا تغرق الشقة، تبرع أحمق بلفة بَكر حمام أبيض أذابها الماء في لحظة، التفت حولي، وجدت قطعة ملابس داخلية باللونين الأحمر والأبيض بقيت في يدي من الحقيبة وأنا أندفع نحو الصوت، حشرتها مكان اندفاع الماء فقلّ كثيرًا، دخلت حجرتي وتركت للرجال مهمة إصلاح الأمر، وفي قلبي غمٌّ لأني قد أضطر للبحث عن مكانٍ جديدٍ، فكرت أني لم أخسر شيئًا فقطعة الملابس الداخلية قد انفك عنها (الأستك) من فترة، وكنت أنوي تصليحها، نمت دون أن أفرغ باقي محتويات الحقيبة.

أفقت مذعورةً في اليوم التالي على صياح قوّادي الذي أعرف صوته جيدًا، هربت إلى ممر الشقة في عكس الصوت، وكنت أرتدي

تيشيرت بحمالة وبنطلون وشعري قصير لا يعوق حركتي، لحق بي الرجل، وسقط قلبي في قدمي وأنا أقاوم يديه التي أطبقت على كتفي، قاومت باستماتة، أخرج صاعقًا كهربائيًا وصعقني فغاب الوجود في رمادية الشلل.

سحبني إلى الشارع وكان قد تجمّع الكثير من الناس، وكنّا على الشاطئ وأمامنا بحرٌ أزرق عظيم، أخذ يهدد الجميع وكان في يده مسدس وكتر حاد ليخيف الجميع، طرحني بين يديه مشلولةً وأخذ يجرح فروة رأسي من تحت شعرى بحرفية، جروح سطحية، فتندفع الدماء أراها تنساب من الخلف إلى صدري ولا أشعر بجريانها! الناس بعيدون ملتفون حول بعضهم، والرجل يجرح أكثر ليأتي بدماءٍ أكثر، ويصرخ ليهدد الجميع، البضاعة دي ملكي ومحدش يتدخل، وأنا لا أزال لا أشعر بشيء !

تنفلت فجأة من الزحام طفلة أراها كالحلم بطرف عيني وتصرخ أمها، ويعلو صياح الجميع، ولا يتحرك أحدٌ ليدخل الدائرة التي فيها أنا والرجل والطفلة الآن، تقترب البنت بلهو، في التاسعة ربما، شعرها منكوش قليلاً، تقترب تلمس يدي فأطبق كفي عليها .

يتوتر الرجل ويوجه مسدسه ناحية البنت، فتضحك له، صياحٌ كثيرٌ يأتي من ناحية الناس في أخر الدائرة، أطبق أكثر على كف البنت،

أشعر أنها نجاتي، أفيق قليلاً من أثر الصاعق، جرت سيدة أخرى في اتجاهنا بشجاعة وتهوّر، ربما كانت أم البنت ووصلت للبنت سريعًا ومسكت بيدها الأخرى وهي تلهث، والرجل كالمجنون يؤكد أنه سيطلق النار، يندفع شابان آخران ويمسكان بيد السيدة من الجهة الأخرى، ويتسلل الجميع، ويمسك كل منهم في يد الآخر في سلسلة بشرية طويلة، أولها قوّاد يمسك فتاة ذات شعرٍ مقصوص يجرح رأسها ليأتي بالمزيد من الدماء، وفتاة نصف مصعوقة تقبض على يد طفلة، وتطول السلسلة أكثر، ويأتي الغروب ومن وراءه شروق ولا شيء يتغير، وتهمس الفتاة للطفلة التي بدأت تتململ وقد ملت من ثبات المشهد، ربما هذا أفضل ما يكون! تضحك البنت ولا يطلق الرجل الرصاص.

المال والحكايات ...

البدء: عندما كنت وحيدة متعافية من علاقة أخذت من روحي ما كنت أظنه وقتها لا يُعوض، والألم ليس أليفًا، جارحٌ ولكني مستكينة له، ساعدني على التعافي وقتها أني كنت أكتب الحكايات الحزينة بلغة خاصة جمعت حولي بعض الأسماء التي كانت تؤنسني وتملأ فراغًا كبيرًا تموج فيه روحي وأيامي، وقتها التقط هو بالصدفة واحدة من حكايتي، والتي أذكر أنها كانت مغمسة بحنان أم، لم أرَ وقتها ما مست فيه لأني ما كنت أعرفه، ولكن سمعت منه تعليق عنها امممم، والآن أعرف كم هي معبرة وموحية ومناسبة هذه الـ(امممم) لبدء كل ما حدث بيننا، وصلنا به أن نكون، نكون ماذا، لنقل زوج من الأحبة غير قابل للوصف والتصنيف.

في الأول: اتصال بيننا بشكلٍ روحيٍ خاطفٍ وحوار مذهل، كنت أنت القاص فيه، رويت. رويت بكل مخزون أيامك من الصمت، ينبوع من الألم المروي جرى من روحك إلى قلبي واستوطنه، ضممته هو وأنت في أبعد منطقة في روحي التي هفت وهشت وذابت لكما. أنت وألمك العميق البعيد السري الخرافي المجهول للجميع، وتكوّن لدي

اليقين وقتها بأنك الرجل الروحي الذي تأخر عني كثيرًا. يقين تشكّل كجنين فرحت له بهوس مع خوف من احتمالات الفقد المزعجة.
بعد الأول بقليل: أصبحنا زوجين وراء باب مغلق في بيت شعرت أنه الجنة مع اللحظات الأولى فيه، وأصبحنا نحن الحكاية. وانشغلنا بترتيب تفاصيلها وكانت متعبة وغارقة في التيه. لأن الحياة متطلبة، ولا تعطي الفرصة للأحبة حتى يتفرغوا للونس بينهما وحكايتهما الخاصة. تجذبهما لحكايات خارج أمان دائرتهما. حكايات عن النقود والمشاكل والأعمال المعلّقة وبعض الأذى ممن لا يفهمون قيمة روحين تسعيان فقط للحفاظ على كل ذلك الدفء والألفة والونس في دائرة تجمعهما بمفردهما.
وكنا في تلك المرحلة نخطف أوقاتًا نستضيف فيها حكاية مقروءة أو مسموعة تلهينا قليلاً عن الدوامة، وكانت تلك هى لحظاتي الخاصة التي تعينني على استمرار مقاومة وطرد كل الألم الذي تدفعه الحياة والظروف في مساحتنا الحبيبة.
في المنتصف نجونا، نعم نجونا، استطعنا بهمةٍ وإجهاد عصبي خرافي أن ندير الأمر، وبتعاون - لم نفهم كيف امتد بيننا - رفع كلٌ منّا العبء الذي يمكنه حمله. ونظر للآخر برحمة وهو يحمل عبأه، وسعينا بتلك القسمة. نطرد المشاكل والهواجس والظنون وأذى الناس، نبعد الهري والمنافسة والاستحواذ، يستعين كلٌ منا على الحمل الثقيل برحمة

الآخر وبالدموع أحيانًا؛ حتى انتصرنا وفي لحظة نجونا. وبقى كل شيء بغيض بعيدًا عن مساحتنا ـ كما تمنينا، ومنحنا الله الرحيم العظيم أمانًا للتأمين والحفاظ على ما تحصلنا عليه من شقاءنا في بقاء مساحتنا موجودة، وكما نتمناها هادئة حالمة منعزلة ملهمة دافئة متماسكة مثمرة مرضية زاخرة بالتفاصيل. أصيلة بذائقة فريدة للجمال، طيبة مع الجميع متسامحة متطلعة للجديد، منتجة كافية للجسد وللروح، منتظمة بفوضى الخلق الذي صرنا نقوم به، فرحة شاكرة للرب وراضية، راقصة نظيفة تعزف البيانو وتأكل الطعام وتستمع به. تلك مساحتنا بعد أن نجونا. وقتها عادت الحكاية تصير طقسًا يوميًا يجدد أذهاننا وأروحنا. نتلقى حكاية جديدة مقروءة أو مصوّرة بإبداع. ونقضي ساعات في استحضارها وتلقيها. وإبداء انبهارنا بكاملها. وبتقليب وفك وإعادة أجزاءها، واستلهم منها في خلقنا. وفي استلامنا لها عندما تثير في أروحنا شيئًا من الأحزان والذكريات البعيدة. فنتأملها ونروي عنها وربما نبكي ولكن براحة. الحكاية الآن في المنتصف تغمرنا وتطوف بنا وتؤنسنا وتجمعنا، وتعطي للأيام بريقًا متجددًا. الحكاية تنجو بنا ومعنا وتدفع بنا إلى الحركة على الطريق الباقي للحياة، ونحن زوجين غير قابلين للتنصنيف أو الوصف في مساحة هي كنزٌ محميٌ بجهل الناس جميعًا بحقيقة الكنوز!

النهاية: بعيدة يا حبيبي. بعيدة لأنه لايزال لدينا الكثير لنحياه، لننعم ببعضنا بعشقنا ونبض التحامنا، ليرضى كلٌّ منّا بالآخر من الزمان كترضية كافية عن أوجاع عمرنا الأول، تعبنا كثيرًا من قبل يا حبيبي. كل منّا كان موعود لشقاء خاص من أول عمره. قاسينا يا حبيبي وتهنا واتغربنا واتقطعنا جراح حتى نكاد نموت نزفًا، ولكن لا تحزن، انتهى كل هذا الآن نحن في أمان. والأيام توشوش لي أن أوان الراحة قائم الآن، ونحن نقضي ساعتنا في وجودنا الجميل نعمل ونأكل ونضحك ونتسامر ونتلقى الحكايات سويًا. سويًا فقط وهذا لنا تمام الاكتفاء. نطل على أحبابنا في عالمهم ونراعيهم ونمنحهم من طاقة حبنا الزاخرة، هل تعرف أنهم يقولون إننا طاقة نور تتحرك في وجودهم وتدفعهم للبقاء. حبيبي لا تخف ليست الراحة فقط لقد سُرّت لي بعض زهور الريحان هذا الصباح إننا ربما أيضًا سنفرح، نعم ستجدنا الفرحة أيضًا فهي تسعى إلينا. وسنفرح بالمعنى الحرفي للكلمة؛ ذلك الشعور الخالص بالنشوة الخالية من أي ذنب أو ألم أو دموع. فرحة مثل ضحكة الرضيع؛ طازجة خالية نهائيًا من أي همٍ قديمٍ أو خوفٍ محتمل. سنفرح تلك الفرحة يا حبيي ونحن نربت على رأس الحكاية التي تسكن معنا كابنٍ مطيعٍ ومثيرٍ ومجددٍ للحياة. سنربت عليها ونحن نضحك ونعلن أنها ابنتنا أيامنا السكرة.

عملة فضية ...

كنت في السيارة بعد خروجي بدقائقٍ من المقابر التي دُفن أبي فيها، وكانت نوبة بكائي العنيف في أخر مراحلها على وشك التوقف تمامًا، مثل كل نوبات بكائي منذ مات أبي بالامس، تبدأ فجأة عنيفة ودون مقدمات وتتوقف بعدها بدقائق وتعود عيني جافة عادية محايدة، وعلى درجة ما من الذهول لحظتها وأنا في السيارة بعد الدفن مباشرة قال زوجي :

Coin for Charon

نظرت إليه شاردةً ولم أفهم !

قال: عملتها حرفيًا.

قلت: أيه اللي عملته ؟

كرر :

Coin for Charon

هو هيفهم، وهتعجبه قوي وهيضحك عليها كتير، وكان يقصد أبي .

وانتهى الحوار على ذلك لتعبي ودون أن أفهم، ولكنني كنت أعي أن أحمد يتكلم عن مزحة بينه وبين أبي لا يفهمها غيرهما!

لأسباب كثيرة كان أحمد هو صديق أبي الوحيد في أخر سبع سنين من عمره، كانا يقضيان الساعات الطويلة يتحدثان ويلعبان الدومنيو أحيانًا. وتعلّم أحمد من أبي أشياءً كثيرة، وكان يناديه طوال الوقت - كصدى للاحترام العميق الذي يكنه لخبرة وذكاء أبي - بنداءٍ واحدٍ لا يتغير: المعلم !

وكان بينهما مزاحٌ دائمٌ لا يفهمه غيرهما؛ لأن بينهما حكايات خاصة كما أن كلاهما - وبشكل درامي عميق - يُقدّر النكتة الحلوة .

في البيت، والجميع يأكل لقمة سريعة، ويستعد للنزول للمسجد لتلقي العزاء، قال أحمد مرةً أخرى:

Coin for Charon

أجبت بضجر مرهق: أيه اللي أنت بتقوله ده؟

حكى لي عن أن المقولة من الأساطير اليونانية التي تعكس فكرتهم عن الموت؛ بأن الروح تُنقل من ضفة نهر الحياة إلى الضفة الأخرى بواسطة قارب يقوده هذا البحّار المدعو Charon والكوين لـ Charon

فكان يوضع مع جسد الميت عملة فضية (كوين)؛ حتى يأخذها البحّار Charon، ويقبل أن ينقل الميت إلى الضفة الاخرى في قاربه .

قلت له بتعجب: وأنت عملت كده؟

فأجاب بأنه وضع جنيهًا (عملة فضية) خلسة من الجميع في كفن أبي وهو يسجيه.
نظرت إلى عينيه المتورمة التي لم يتوقف جريان دمعها تقريبًا منذ الأمس، عكس عيني التي تضخ فجأة وتصمت فجأة، وقلت بشرودٍ وأنا أنتبه للحظة الأولى أن تلك مرتي الأولى التي أرى فيها دموع زوجي :
- وهو ينفع كده ؟
رد بثقة: أيوه ينفع وزمانه بيضحك عليها دلوقتي !
ابتسمت بإرهاق وأنا أتخيل أبي يضحك ضحكاته التي بلا صوت، والتي تنتهي كل مرةٍ بسعالٍ عميقٍ. رأيت الجنيه في أماكن متفرقة وأوقات عجيبة بعد ذلك .
وقال زوجي: إنها مجرد أسطورة وإن مصادفتي للجنيه لا أكثر من ألاعيب عقلي الباطن. لكن الأمر لم يكن بهذه السهولة، هو زرع الفكرة في رأسي، وهي أصبحت حرة تكمل حياتها كيقين بأني في كل مرة كنت أجد جنيهًا وحيدًا في أوقات غريبة، كنت أعلم أن أبي هو من أرسله! ولم أمد يدي أبدًا لأخذ جنيه اعرف من موضعه أنه من عند أبي.
ولكن بقيت دائمًا أرسل التحية لـCharon!

يوم الإثنين ...

عندما تقع ثلاثة أحداث قدرية حزينة فاصلة ومؤثرة في حياتك، ويتصادف وقوع تلك الأحداث الثلاث يوم الاثنين، لابد أن تقف وتفكر وتتساءل، ولن يكون السؤال هنا : لماذا تحدث لي أحداث قدرية حزينة وفاصلة؟

ولن يكون السؤال: لماذا تحدث لي أحداث حزينة ومؤثرة يوم الاثنين تحديدًا؟

بل سيكون السؤال: ما الذي ستحمله لي أيام "الاثنين" القادمة في حياتي؟

وعندما يخبرك صديق ما بأن الأمر صدفة، ويشرح لك آخر أنه ربما يكون اللاوعي هو الذي يستدعي الحوادث في هذا اليوم، فإنك لا تهتم بالرد عليهما، ولكن تنفرد بتليفونك وتضعهم على قائمة الحظر، فينتهي كل هرائهما وترتاح منهم إلى الأبد. وبالطبع سيتكوّن لديك اليقين الجديد: بأن يوم الاثنين بهذا السوء فعلاً!

ثم ستبدأ في وضع قائمة مطوّلة عن الأشياء التي يجب أن تمتنع عن فعلها يوم الاثنين، أشياء من الممكن أن تتسبب في وقوع أحداث

قدرية حزينة! وستكون كل أيام الأسبوع مجالاً واسعًا للتجريب وتجميع قائمة ناجحة.

اليوم – مثلاً - وضعت البند واحد، بأن لا تنسَ كيس الكفتة ـ الذي اشتريته ـ خارج المبرد في يوم شديد الحرارة، سيحدث أن يجده أحدهم على الطاولة بعد يوم كامل، ولن يهتم بتفقد حالته بل سيضعه سريعًا في المبرد، على أن يسألك عنه فيما بعد، عندما تستيقظ أنت ويعود هو من العمل. وسيحدث أن تستيقظ أنت - بعد ساعات - جائعًا فتفتح المبرد، وتأخذ كيس الكفتة الذي أعيد تجميده وتقليه سريعًا وتأكله، فيصيبك تسممٌ قاتلٌ! ولكنك تنجو ـ على أي حال ـ بعدما تكون الميكروفلورا الموجودة داخل معدتك قد ماتت، فتقضي عمرك معانيًا آلامًا عنيفة عقب كل وجبة !

القاعدة الثانية: لا تتورط في شِجار شوراع مع صاحب المكان الذي تستأجره لتشغيل "الدي جي" الخاص بك وجني المال، فإن هذا يورطك في احتمالية تنفيذ تهديده الذي قاله مع كلمات بذيئة كثيرة وهو يمسك بتلابيب قميصك هائجًا، بأنه سيطردك أنت وفرقتك التافهة، حذارِ من أن تضربه بعنفٍ أحمق، ثم تمزق ما تبقى من قميصك وتتركه سابحًا في دمه، وتقفز إلى المسرح وتبدأ في العزف، وشيطان ما يملؤك

فينتقل الجنون لكل الحاضرين، ويضج المكان بالصياح والقفز مع موسيقاك، ربما ينتهي بك الأمر طريدًا لا تملك ثمن سجائر المزاج !

القاعدة الثالثة: حذار قد يحدث أن تندمج في العزف لموسيقاك الخاصة التي لا يشتريها أحد، ويعلو معك الأداء جدًا مع تأثير السيجارة في رأسك، سيحدث أن تلتقط عيناك تلك الفتاة وأنت تعزف وهي هائمة بشكلٍ ما، وعيناها تركز عليك، فتقف بعينيك طويلاً لا لتلتهم جسدها أولاً ـ كالعادة، ولكن لتفهم أي نوع من العيون تلك التي تكون النظرة إليها مقدمةً لأحداث قدرية حزينة وفاصلة؛ تليق بيوم اثنين معروف عنه أنه فعلاً بهذا السوء؟

دنيا ...

أريد الآن أنا أكتب مشهدًا في سيناريو مجهول
صديقتين تشربان الحشيش في الهواء في مساحة براح أمام فيلا في كمبوند ما، الصديقة الأولى تضحك بعنفٍ. تسالها الثانية بابتسامة شاردة عن سبب ضحكها، ترد: معقول تخطيت الأربعين ولم أدخل دنيا بعد !!
فترد الصديقة ـ التي يعرف الجمهور من مشهد سابق أنها أم لطفلين ـ وهي تنظر بعيد: ولا أنا دخلتها !
الصور تبتعد تدريجيًا حتى تبدو الصديقتان عن بعد نقطتين سوداواتين في أضواء الكمبوند، مع دخول موسيقى .

هل حدثتك من قبل عن أني كاتبة سيناريو فاشلة، لم أكتب مشهدًا واحدًا من قبل؟
هل يمكنني أن أقول لك إن صوت قرآن المسجد البعيد أجمل وأنت سكران! وإن ضحك الأطفال أحيانا يثير الغضب! وإن الموت قريب! وإن اسماء لم تقل لأبيها شيئًا من القصيدة! وإن قبلات المراهقة كئيبة ! وإنني لن اكتب سيناريو الصديقتين؛ لأنني لم أشرب حشيش من قبل !

هل يمكنني؟
ولكن ربما سأكف عن الحديث معك؛ لأكتب مشهدًا آخر .

رجل وامرأة يجلسان على كرسيين عاليين أمام بار، بينهما علاقة على وشك أن تبدأ، وفي الأمر خيانة ما .
خيانة لزوجة أو زوج لا يظهران في المشهد الآن. لا لن أكتب هذا المشهد؛ لأنه مكرر رأيته في فيلمين لنفس الكاتب .
بدين يكتب فقط عن الحب! وأنا لا أحبه، لا أقصد الحب ولكنني أقصد الكاتب البدين. ربما سأكتبه وأضع رتوشًا خاصة، سأجعلها امرأة البار ترتدي فستانًا جميلًا به زهور سوداء، لاحظت أخيرًا أن الشوارع صارت أجمل؛ لأن الفتيات الصغيرات عادت لارتداء الفساتين، إنهن مبهجات وهن يضحكن وهن يلتقطن السليفي وهن يلتهمن الشاورما !
هل دخلوا دنيا؟!
هل سيدخلون؟!
الصغيرات المرتديات الفساتين أقصد، هل ستكون واحدة منهم بعد عشرين عامًا إحدى الصديقتين اللاتين يشربان الحشيش في الهواء؟
وهل يمكنني أنا ـ ككتابة سيناريو فاشلة ـ أن أخلق لهن الدنيا حتى يدخلن بها؟

أو ربما سأتركهن لحالهن وأذهب إلى دنيا موجودة فعلاً وأضع بها خراب ما، في اللحظة التي سيسأل الرجل زوجته على أثر حكاية يسمعونها: هل يمكنكِ أن تخونيني يومًا ما؟

هي ستجيب: لا .

وعندما يسألها عن السبب: ستقول لأنه لا يستحق منها ذلك .

سيندهش من ردها ويظل يستجوبها على أساس أنه من المفترض أن الحب هو الذي يمنع الخيانة، ويستمر الحوار حتى يحدث الخراب بينهما ! ولكن لابد أنها لم تكن دنيا حقيقة. لو كانت كذلك ما استطاعت كاتبة سيناريو فاشلة مثلي أن تضع فيها الخراب!

السُّحب الإصطناعية ...

كانت الدولة العظمى ترسل سُحبا اصطناعيةً إلى مدينتي الصغيرة بينما كان يحدث هذا، كنت أتشاجر مع ابنة عمتي بسبب قطعة ذهبٍ، عندما رأت هي الاسورة معي تعرّفت عليها فورًا، وأمسكتها في يدها وأخذت تصرخ أني سرقتها منها، تعجبت من قولها الغريب وسألتها، كيف أكون سرقتها؟ وقد كنا معًا عندما قمتي أنتِ ببيعها في محل الذهب؟

الدولة العظمى ترسل السُحب الاصطناعية إلى مدينتي؛ حتي تمطر في لحظة محددة بضغطة زر من ريموت كنترول معهم، تمطر مطرًا غزيرًا ليعادل أثر التغير المناخي العنيف الناتج عن مصانعهم. ردّت ابنة عمتي. بانها فعلاً باعت الأسورة معي، ولكنها شعرت أن هذا كان حلمًا عندما رأتها من جديدٍ معي، قلت إني اشتريتها، أراها جميلة فاشتريتها، وهناك سبب آخر لشرئي لها.

المطر الذي سينزل سيُغرق مدينتي تمامًا. سيُغرق كل شيء على مساحة كبيرة من أجل رفع درجتي حرارة للدولة العظمى !

قلت لها إني اشتريتها؛ لأحافظ على مالي من التضخم وانخفاض الجنيه، وحدثتها أن السبب الخفي هو أملي أن أصبح غنية جدًا؛ فأستغني عن الأسورة وأردها لها لتفرح، هي التي تتهمني بسرقة غير منطقية الآن!

قالت العمة بقسوة مفرطة وغلٍ بينما كنت أتابع بعيني خارج الشباك حركة السُحب الاصطناعية الكثيفة: ومن أين لكِ بهذا المال الذي اشتريت به الأسورة؟

قبضتُ على الأسورة بعنف بين أصابعي وتركتهم وأنا أقول: أيتها العمة السخيفة، لقد ملكوا الأرض ومن عليها، والآن يملكون السماء .

- تبًا لكِ !

وصفعت الباب بعنفٍ وخرجت لأشم رائحة المطر عندما ينهمر في لحظة ما.

محـــتـــــرفــــة ...

من قواعد معظم المهن ألا تتورط في علاقة مع: عمليك / مريضك / موكلك، حتى عاملات الجنس، من أشهر قواعدهن الامتناع عن قبلات الشفاه مع الزبائن .

وأنا ـ أيضًا ـ لم أكن أريد أن أتورط معكِ أيتها الحكاية، تعاملت معكِ ـ دائمًا ـ بحيادية وجمود، كنت أقف على مسافة منكِ وأنظر. الحكاية تلو الأخرى لم تمس طرف ردائي حتى، وكانوا يقولون جميلاً! وكنت أعرف أن شيئًا ما غائبًا، أيتها الحكاية كان يكفيني منكِ القدر الذي يحضر. فلقد رأيت الغائبين فيكِ وخفت! لدي آلام كثيرة يجب أن أعتني بها، ولن أضيف مس الجنون إليها. كنت أعرف أن الجنون أرحم من الذنب يا صديقتي.

عزيزتي فقيدتي/ الحكاية الأخيرة:

لِمَ صنعتي بي هذا؟ مثلما اعتدت، تعاملت معكِ بالمسافة اللائقة. رغم نداءاتكِ الموجعة، لم أشعر، كنتِ تثقين في، ولم أكن أهلاً لتلك الثقة! كل ما كنت أريده أن أستغلك، وليحدث لكِ ما يحدث بعد ذلك، براءتك واستسلامك لي، لم يؤثرا في نفسي أول الأمر، لم أتورط معكِ، فأنا محترفة بالقدر الكافي .

ما الذي حدث ليجعلني أشعر - لأول مرة منذ زمن بعيد - كيف تسربت إلى نفسي شفقة عليكِ؟ كيف رق القلب؟ ربما لأنكِ كنتِ أكثر غُلبًا من المحتمل! سمراء ضعيفة صبية، ولكِ غمازتان حين تضحكين .

ضعفت أمامك، حتى أنكِ صنعتي شيئًا غريبًا، وصلتي - من جديد - الرجاء الذي انقطع، لقد رفعت يدي للسماء؛ أطلب وأدعو من جديد، أدعو لكِ يا حكايتي. بكيت لله من أجلك، أنا اليائسة - منذ زمن - من الرجاء!

حاولت، حاولت بكل ما أملك لجعلكِ تبقين، حتى أن ضعفي أثار كل حكاياتي السابقة؛ فاستيقظت تنتقم، لا لم تكن تنتقم، كانت تنادي بحقها، حقها المهدور في روحي. وجدت نفسي - رغم الاحتراف - متورطة، متورطة حتى النخاع. مردومة تحت الحكايات، أُلملمها من الأيام والأحزان وقلة الحيلة، أسعى لنجاتها، أنتصر لها. وكنتِ وحيدة، وحيدة جدًا يا فقيدتي، ألا تعرفين أن الآخرين لا يحبون الحكايات؟! يحتفون ويقدرون - فقط - المحترفين. وكنتِ أهلاً للاحتفاء، فلماذا أتيتي ورَدَدْتِي لي نفسي الأولى، وحرمتيني من ثبات المتحققين؟

صناديق الدولاب ...

الشعور الذي أستيقظ عليه الآن من حلم نومي؛ يشبه تمامًا شعوري عندما تعريت أمامك لأول مرة. لم يكن هناك وقتها عنفٌ أو اغتصابٌ، تمَّ كلُّ شيء بهدوءٍ، ولكن لم يكن هناك أيضًا رضا!

"ما أُخِذ بسيف الحياء؛ فهو حرام." عندما سمعتها استطعت أن أفسر أسباب فعلتي يومها، وأدركت لحظتها أن لدي مشكلة ـ خوفًا أو عقدة ما ـ تمنعني من أن أقول "لا" في الوقت المناسب !

في الحلم كنت أحمل وجه امرأةٍ آسيويةٍ، لها شعر مقصوص حتى نهاية رقبتها. رأيتُها أو رأتني أقتل رجلاً وأقطّع أجزاءه! لم أرَ دماءً أو بقايا جسده. وصل لإدراكي ـ دون معالم واضحة ـ أني انتهيت من ارتكاب الجرم، وأن سببه الرئيسي أن هذا الرجل قتل ابني! ورأيتني أحتفظ ببقايا الرجل وبقايا ابني المقتول ـ أيضًا ـ في صناديقَ فوق الدولاب .

شعوري ـ في الحلم ـ وأنا أحمل وجه المرأة الآسيوية وبعد انتقامي؛ هو الشعور الذي أتكلم عنه معك. على الرغم من الاختلافات الجوهرية

بين الحدثين؛ إلا أني شعرتُ ـ مثلها أو مثلي في الحلم ـ شعورًا محايدًا متجمدًا! وكأن الدماء والدموع وكل سوائل الجسد والعقل والروح قد تعرضت لبرودة أعنف من الاحتمال، فتجمّد كل شيء للأبد! شعورًا سخيفًا بالنهاية، ليست نهاية حياتي، ولكنها نهاية الحياة التي كنت أعرفها قبل تلك اللحظة. تمامًا مثل المرأة الآسيوية في الحلم التي تجمّدت ـ هي الأخرى ـ وراحت في آلية تخفي معالم جريمتها؛ فتبولتْ على السلالم التي بها دماء حتى يتغير لونها. وبقيتْ على شعور اللا شعور هذا تراقب الكون، وتنتظر اليوم الذي سيكتشف فيه أحدهم الصناديق التي تحتوي على القتيل وابنها معًا!

الباب الخلفي ...

"سأذهب إلى سوريا لأشتري الياسمين"!
ردّد لي هذه الجملة أكثر من مرةٍ، ولم أتمكن من سماعها جيدًا، ولكن تعبير وجهه كان يخبرني أنه يقول شيئًا حماسيًا مثيرًا !

في المرة الأخيرة التقطت الجملة وسمعتها ولكن وقعت مني الكلمة الاخيرة
سألته؛ تشتري ماذا ؟
أجاب: فيما بعد سأقول لكِ .
ولكنه لم يقل.
دائمًا كنا مشغولين تتساقط الأعمال - التي لا تنتهي - من يميننا، وتنادينا أشياءٌ عبثية من شمالنا؛ فنلبي النداء !

في الليلة التي كانت تصرخ أمي من ألم ضرسها، أردت أن أخذها ونخرج لتخلعه، ولكنه كان يرفض، وتحجج مرةً بنفاد البنزين من السيارة، ومرة بشيء أخر لا أذكره، وعندما أصررت أن أخذها انا

بمفردى لتخلع ضرسها، مسك ذراعي برفق وقال دون أن ينظر لي:
لا يمكن أن نخلع ضروس الجثث.

في نهار ضبابي اكتشفت أن الباب الخلفي للبيت يفتح على مكانٍ فسيحٍ فارغٍ ترى منه السماء تملأ مدى البصر. فرحت واقترحت أن تكون الجلسة هنا دائمًا وناديت الجميع (هو) وأبي وأخي وحبيبي الصغير لنجلس في المكان الجديد، وبدأت في وضع المقاعد الخفيفة ووسائد للجلوس، ذهب الصغير ليلعب مع الأطفال وابتعدوا قليلاً وكانوا على مرمى بصرنا، وكنا نتناقش في أن المكان فعلاً جميل .

فجأة انفتح الحائط عند الأطفال عن عسكر كثيرين تقودهم امرأة ترتدي زيًا عسكريًا وصرخت فيهم: لم تجدوا إلا قسم الشرطة حتى تلعبوا أمامه؟ !!
وركنت الأطفال عند الحائط؛ حتى تعاقبهم. وتسمرنا كلنا في مكاننا، قلبي انفطر على الصغير حبيبي وهو يبكي من بعيد، تقدمت نحوهم و(هو) يصرخ محاولاً منعي مني الذهاب ولكنني ذهبت .
قلت للمرأة: إنني أنا المسؤولة وأنا من تركت الولد يلعب .
ردت: هل تريدين أن تتلقي العقاب بدلاً منه؟

وقبل أن أرد ضربتني مرتين على جسدي بعصا ثقيلة في يدها، ورمت الولد في حضني، وقالت: اذهبوا !

حاولت أن أنقذ بقية أصدقائه فهممت بالدفاع عنهم أمامها، ولكنها ثارت وقالت صارخة: هل ستمشي أم لا، تريدهم جميعًا؟؟

فررت والولد في حضني، وعدت لأبي و(هو) وأخي ولملمنا سريعًا المقاعد والوسائد، ودخلنا البيت وأغلقنا الباب جيدًا .

بعد انصراف الجميع قال لي: سأذهب إلى سوريا لأشتري الياسمين !

قلت: لما تشتريه؟

رد: حتى نصنع العطور .

نظرت إليه ثواني، ثم أجابته بنظرة خاوية تمامًا وأنا أغلق النور لننام: حسنًا فكرة جيدة.

أم وسبع نساء...

أُذكرني في أحاديثكم الليلية، بينما تمارس طفولتك بأريحية ودلالٍ، مريحا رأسك على فخذها ويدك اليمنى تحت رأسك بينما تشير بيدك اليسرى في الكلام "كسرت سيارتها على في أول الشارع." خرجت من السيارة ونظرت للانبعاج الخفيف في مقدمة سيارتي، وابتسمت للخبطة في سيارتها وركبت وأكملت طريقها دون أي كلمة، امرأة مجنونة.
أو، بينما تناولني الجنيهات وعلبة السجائر من خلف الحاجز الخشبي لكشكها الصغير فوق الرصيف وتسألني "هل أحتاج شيئًا آخر؟" وتبتسم لي في ودٍ رحيمٍ، كانت تهتم فعلاً.
أو قل: وأنا أهرول من مكتبٍ لآخر أسابق الساعة حتى لا يجرفني تيار انصراف الموظفين، كانت تجلس على مكتبها تتطلع للباب ويدها تسند خدها دون تململ، ويدها الأخرى تضغط الختّامة فوق الحبر وتؤرجح الوقت فلا يتزايد.
أحكِ لأمك عني، لأنه لا حبيبة حقًا حتى تعرف الأم بشأنها، قُلْ كانت مجنونة وتهتم، وكانت دومًا تنتظرني.

ـ الأم: (مجنونة وتهتم وكانت دومًا تنتظرني!) عندما وصفها بهذا الوصف واكتفى. فتح لي بابًا دخلت منه مئات من النساء المحتملة. والتي يمكن أن ينطبق عليهن وصفه، كلهن صالحات لأن يكن تلك الحبيبة السابقة. الحبيبة التي تشغلني لأسباب خاصة لا تشبه أسباب النساء العادية في رغبتهم عن معرفة حبيبة الأبن. لآن الباب أمامي مكتوب عليه مجنونة وتهتم وكانت دومًا تنتظرني، يمر من الباب أولاً:

(1)

امرأة تترك فوق شفتيها شاربًا خفيفًا لا تهتم كثيرًا بإزالته، تأكل البقدونس كطعامٍ أساسي. وتتبرع بالدم حتى تستطيع أن تدفع ثمن قطعة الحشيش الذي يحتاجها هو، وعندما كانت تحصل عليها، كانت تنتظره في مكانها الدائم بجوار زجاج عرض بائع الملابس الداخلية الحريمى الحريرية الباهظة الثمن. والتي تشتهيها هي حد أنها تحلم بها ليلاً .

(2)

تكره الألوان السادة وكأنها لعنة. ترتدي المشجر، وتضع على الأثاث كسوة مشجرة، والملاءات والمفارش والسجاد وتوك الشعر، كل شيء، تشعر أنها غابة متحركة بالشجر والنخل وكل ألوان الورد، كانت دائمًا تغسل له سيارته كل صباح، لم تتخلف يومًا مهما كانت

الأسباب، وتنتظره دائمًا جالسةً على النقطة المرسومة على الحرف الأوسط من اسمه.

(3)

لها عين خضراء صافية كمياه بحيرة تعكس الشمس في ساعة خاصة. لها أذن صماء فقدتها وهي تلطم خديها بعنفٍ عندما أصيب هو بسخونة من دور برد، لحظت أنها فقدت إحدى أذنيها بعدما فرغت من عمل الكمادات له، ينتظرها دائمًا علي في حكاية مسائية يلتقطها هو من الهواء فتصبح حلم ليلٍ له.

(4)

كان أحد ثدييها مبتورٌ. وكانت تلبس ضيق لتبرز الثدي الباقي، اعتادت أن تطعن منافسيه في العمل طعنات تترك أثرًا. خاف الجميع وتركوا له المجال، ولم تعد المنافسة تزعجه. تنتظره دومًا قرب الزر الذي طار من معطفه لأنه لابد أن يعود ليأخذ الزر ويكمل معطفه.

(5)

مدمنة قمار، وتأكل الدجاج المقرمش بهوس، لا تأكل غيره، هو الوحيد الذي لم تكن تقترض منه، وتقول له إن ماله لا يجوز المقامرة به، أهدته

يومًا قطعة ذهب ثمينة كانت النساء تورّثها من أم لبنت في عائلتها، وكانت تسكن عند قبر أبيه الذي يزوره هو مرةً كل ثلاثة شهور غير المواسم والأعياد.

(6)

تخاف الشوارع، لا تخرج من بيتها أبدًا، تصاب بنوبة ذعرٍ إذا طرق أحدهم بابها، كانت تكتب له كل يوم رسالةً إلكترونية لتخبره بما يجب عليه أن يفعله طبقًا للأصوات التي تحدثها وتخبرها بالأسرار، وكانت تنتظره دومًا أمام الشاشة في انتظار رسالة لا تأتي منه إلا كلما احتاج أن يكون له ظلٌ يظهر في الشوراع دون ضوء الشمس.

(7)

تضحك طوال الوقت، ولا تبكي أبدًا، لها شعر ذكوري قصير، بطلة ركوب خيل وعندها عدة ميداليات دولية. تصنع له دومًا كعكات بمواصفات خاصة غارقة في السكر. كانت تنتظره في مساحة رملية تحت نجمة معينة، ينقبض قلبها لرؤيتها؛ لأنها تعرف أنها ماتت منذ ملايين السنين وسرعة الضوء فقط هي ما تجعل لها نورًا باقيًا على الأرض .

العقاب ...

حزمتْ الفتاة حقائبها ورحلت، أجرت اتصالًا تليفونيًا للقوى المتحكمة في الأمور وقالت: لقد رحلت! واعتذرت عن عدم انتظارها الإذن، وأوضحت أن الأمر لم يعد محتملاً .

دخلت مقهى لتنتظر، بعد أن أجابتها القوى المتحكمة في الأمور أنها تحتاج وقتًا لتفكر، جلست الفتاة تتأمل الوجود عبر زجاج المقهى الشفاف، ثمة فكرة تحدّق فيها، شعرتْ هي بذلك. تلفتت حولها حتى وجدتها، فتاة صغيرة سوداء اللون تتأملها بفضولٍ. تبتسم الفتاة للطفلة، فلا ترد الصغيرة الابتسامة وتشيح بوجهها.

على الجانب الآخر كانت القوى المتحكمة بالأمور حائرة، يحدث هذا الأمر بندرة، الفتيات لا يتحركن وفق أهوائهن، ثمة فوضى جديدة في الوجود الكوني للقوى، سببها ربما انحباس المطر منذ وقتٍ بعيد.
كل الأفكار أجمعت على أن خلايا الفتاة لا تزال جديدة، ومن الخسارة أن تُدمر ذاتيًا على خطئها!
تقرر أن يتم البت عقب وصول تقرير عن حياة الفتاة الأولى.

بينما تشرب الفتاة القهوة شعرت بخوفٍ مفاجئ، لم تعرف هل لأنها عالقة الآن بين حياتين، أم لأن الحياة القديمة لاتزال في قلبها. وهي كانت تخاف كثيرًا فيها، تخاف بألم، وتتألم بخوفٍ! هكذا كانت ببساطة مفرادت نبضاتها، على الرغم من أن كل زميلاتها كن يخشين الوحدة، أما هي فلا. كانت تجد فيها ملاذًا من الوعد الكبير، الوعد الذي لم يتحقق، عندما تذكرته ذرفت دمعتين وانتهى الأمر. لا يُسمح لها بأكثر من ذلك. كم تمنت في أيام العذاب الأولى أن تُمنح ولو حتى عشر دمعات، ربما صار الأمر أكثر احتمالاً، ربما ما كانت تضطر لاتخاذ هذا القرار العنيف !

القوى المتحكمة في الأمور قررت أن تُعاقب الفتاة بفترة انتقالية، تنام فيها أربعة عشر ساعة من الأربعة والعشرين، وتستيقظ وجسدها متعب وكأنها لم تنم لحظة! لتبقى خلال الساعات العشرة الباقية منهكةً ضائعةً ناعسةً تنتظر النوم. وفي النوم يكون حلمها مؤلمًا، فترى سحب السماء البيضاء الناصعة التي تسبح في اللون اللبني، وقد تحوّلت إلى أشكال وبشر. وترى إحداها مثل قدم كبيرة بأصابع متفرقة تهوي، وتظل تهوي حتى تسحقها. لن تستطيع الفتاة الاستيقاظ قبل مرور وقتها، ستظل تتابع القدم تهوي لتسحقها !

ربما يُبدّل لها الحلم في أيام العطلات؛ فترى العمة الكبيرة في حياتها الأولى. العمة المصلية الحاجة لبيت الله، التي لها من البنين والبنات والأحفاد والحفيدات ما لها .

العمة ذات الستة والستين عامًا تتزوج فتى في الثامنة عشر من عمره! ترى الفتاة في الحلم الأثر الوجودي لتبدّل النواميس وتغيّر منطق الأشياء، يضيق صدرها بالصراخ ولا تصرخ، تتمنى الصحو ولا تصحو!

تلقت الفتاة قرار عقوبتها بنوعٍ جديدٍ من الخوف لم تألفه في حياتها السابقة، فحنّت إليها، حتى الخوف فالمألوف منه أكثر رحمة من الغريب المجهول. استسمحت، طلبت الإذن بالعودة وإصلاح ما أفسدته، ولكنها قوبلت بالهجر! هجروا حتى النظر إليها، اقتادوها لتنفيذ العقوبة، ريثما تستطيع القوى المتحكمة بالأمور ترتيب فوضى عصيان الفتاة، وتحديد أوجه الاستفادة الجديدة من خلاياها الشابة. شعرت الفتاة ـ وهم يقتدونها ـ بأن ثمة فكرة تحدّق فيها، فالتفتت لتجد طفلة شقراء تتأملها. ابتسمت لها الفتاة، فأشاحت الشقراء نظرها بعيدًا عنها.

مساحة مسطحة ...

المشكلة أنكم ترون عيني ولا أراها أنا! لأسباب مجهولة تملكني ـ فجأة ـ ذعر من تلك الفكرة! ماذا ترون في عيني؟ وقفت أمام المرآة ولم أرَ سوى حدقة سوداء تتحرك في هلع. التقطت عدة صور ولم يكن هناك وجه! فقط مساحة مسطحة. ماذا ترون في عيني؟ التحقت بورشة تمثيل؛ لأتعلم التحكّم في تعبير وجهي، في نظرة عيني. المدرب مبهور من إمكانياتي، يعرض فرصًا تبدو كبيرة لأبدأ، لا يهمني شيء. أنا يمكنني أن أنظر إليكم وأنا أعرف ما الذي ترونه في عيني، أنا أضع النظرة وأنتم فقط مجرد متلقٍ. أبرع أكثر، بل أقوم بعملية نصب بسيطة؛ لأؤكد لنفسي أنني يمكنني أن أخدعكم! المدرب يُلح عليّ، لن أخسر شيئًا. لأول مرة أمام كاميرا، أنظر إليها بثقة يمكنني أن أخدعك أنتِ الأخرى! أضع النظرة اللازمة لاختبار المشهد، أثق أني أستطيع، أندمج، عندما ينتهي المشهد أجد الكل من حولي ينظرون لي بهلعٍ! ويتعجبون من العمى المفاجئ الذي أصابني. أضحك بسخرية لست عمياء، أراكم جيدًا. تصر أمي أن أركب طائرة وأذهب إلى بعيد لأعالجَ عيني، أراها فزعة، استسلم لها دون اهتمام. أنظر للسماء من أعلى وأرى كائنًا غريبًا يطير، ينظر لي طويلاً. أخاف! كيف تراني الكائنات

السماوية؟ لم أتدرب على خداعها. الكائن لا يحيد نظره عني، أصرخ بجنون وتصبح الموجودات سوداء ولا أرى شيئًا، والجميع يهنئونني بسلامتي وعودة البصر لي!

داليدا ...

ما سرك؟ يسألني محدقًا في وجهي، يستفسر عن لغز ثباتي أمام المحنة. نظرت إلى عينيه وفهمت أنه يتطلع لإجابة غير تقليدية، مثل: إيماني أو قوتي أو حتى حماقتي وعدم تقديري لحجم الورطة. صمتُّ وأنا أفكر أنه بالرغم من أن إجابتي مختلفة عن كل ما سبق إلا أنها أتفه من أن ترضي التطلع في عينيه !

ذكّرني الأمر بأمي وهي تصرخ لماذا تفعلين ذلك؟ كنت دومًا لا أرسم الخريطة، ليس كما يجب أن تبدو عليها. كنت أزيح ورق الشفاف وأرسم العالم كما يحلو لي، ورسبت في الجغرافيا !

التداعي، التذكّر بالتداعي هو أملي الأكبر، مجرد شيء صغير يمر أمامي يسحب خيطًا مجنونًا من الذكريات إنه لايزال ينظر إليّ محدقًا ينتظر الإجابة. لم تمر إلا ثوانٍ أو دقائق ربما، أو أيام أو سنين إذا احتسبت على أساس ما نبشت نظرته من ذكريات...
(الولد الحيلوة في الموسكي وبينا الستارة وليه الستارة وفي قلبي له كلمة صغنونة)

الحبيب غاب، ضاع مني، أو ضعت منه !
المساء العميق وتهاويم أذان الفجر، وأنا أفك دجاجة في الميكروويف؛ لإعداد وجبة لا أعرف لها اسمًا بسبب التوقيت!

هي سامحتني، لا شك في ذلك تقابلنا عدة مرات بعد ذلك، وكان في عينيها قربٌ ما، ولكنه ليس كما كنا! بقى فقط ما يبقى بين اثنين تشاركا في حبسٍ انفرادي يومًا، ثم افترقا بعد نومٍ طويلٍ متعانقين!
جدارٌ ما يحمي ظهري وأنا أنزلق ببطء في ذهول دون بكاء، هل بكيت بعد ذلك؟
لا أدري كيف أدافع عنكِ وأنتِ لا تتحدثين إليّ؟ سؤالٌ جديدٌ منه انقطع الخيط الأول، واتصل آخر. يرسم ببراعة، يبتسم لي، ويأكل من يدي.

أقول : عايز شيكولاته؟
فيقول : لا بالونات، بالونات كتيرعلشان أديها لكل الأطفال؛ فيضحكوا ثم يضحك، فتتنفض عصفورة في قلبي .
كسرت أنفي بنفسي، الطاولة تستقبلني بحب وأنا أندفع نحوها، كنت أريد فقط أن أهش ذبابة حطّت على جبيني!

مدرسات الرسم لا يعطين دروسًا خصوصية، مدرسات الرسم ليس لهن حجرة، لا أحد يشكو من مدرسات الرسم. أول مرة ولية أمر تقول كده في مدرستنا، تصرخ المديرة بهستريا !

بدت ولية أمر لطيفة عندما جاءت أول مرة، شكرتني على الهدايا والحلويات، وطلبت مني ألا أفعل ذلك مرة أخرى، قالت: له أخت توأم كما تعلمين، وليس من الجيد معاملة توأم أفضل من أخته. أدارت ظهرها لي وانصرفت، وكانت البنت التوأم في يديها اليمنى تتأرجح ضفيرتها.

السندوتش وقع منه في التراب، وأنا ألتهمه بعيني. طرت إليه، نفضت السندوتش، وأعطيته له مع قُبلة. مامي قالت: "مش نتكلم معاكِ تاني."

قالت توأمه، وهي تسحبه وتبعد، نظر لي وابتسم ورمى قُبلة.

مش هينفع كده، أنتِ كده كأنك بتعترفي أنك اتحرشتي بيه، لو مكنتيش بنت عمي، كنت قلت إنك عملتيها، ردي عليا؟

طلب أو سؤال ثالث له، وخيوط كثيرة تتقطع ولا يتصل بعدها شيء.

جهتين لطريق واحد ...

وقف الأسمر النحيف بجواري وقد رفع مقدمة السيارة لإصلاحها على الطريق الزراعي. السيارات تكاد تطير أمامي بسرعاتها الخرافية، يبدأ العويل في قلبي، ووجهي محايد، بعد قليل يشتد الطرق في صدري أكثر من قدرتي على الاحتمال فأبدأ في النهنهة والتي سرعان ما تتحول لنوبة بكاءٍ عنيفةٍ، لا أشعر معه بشيء، هو يندهش يقترب مني يحاول تهدئة روعي، يضمني إليه وعيناه نبع صافي من دهشة مخلوطة بحنان عذب، يمرر أصابعه على شعرى دون أن يمسه بعمق .

عندما هدأت قليلاً، أخذني من يدي وعبر بي الطريق ربما ليقول لي لاتخافي الطريق آمن، أعبر معه ذاهلة، عندما نقف بعد عبورنا وأنظر إلى الجهة المقابلة، أرى السيارة مفتوحة كما هي ووراءها اللون الأخضر في اتساعه الحبيب، يغمرني سرور لحظي. أنظر إليه، يسألني ـ برقة وشبه ابتسامة: خايفة؟ أجيبه بابتسامة هادئة وعيون مازالت حمراء، لا مش خايفة.
ينقل نظره بيني وبين الطريق في تواطؤ وكأنه طفل يلعب، ويسحبني من يدي فجأة ويجري بي أمام العربات وهو يهتف: اجرِ! أرى

السيارات قادمةً لتسحقنا؛ فأغمض عيني وتجري قدمي ولا أعرف هل هو الذي يسحبني من يدي أم أنا التي تجري! أفتح عيني وأنا ألهث أصبحنا من جديد أمام السيارة وقلبي يكاد ينفجر من سرعة نبضه .

يضحك عاليًا ويقول: شفتي سهلة إزاي، أبادله ضحكًا مثل البكاء له رنين عالٍ ونهنهة. نركب السيارة ونرحل، وأنا أفكر أن المشهد كان سيكون أكثر إرضاءً لي إذا مات هو على الطريق وعبرت أنا! وأنا أفكر كم من الطرق الغبية التي يعتقد البعض أنها ببساطة يمكنها أن تتغلب على ماضٍ موجعٍ وخوفٍ أصيلٍ كوشمٍ.

يحدث فقط للآخرين ...

علمني سورة يوسف في جلسة إبان الغروب في بلدة ساحلية وقص لي حكايته، ذلك الرجل الذي اشتهى بعد ذلك نهدي، وقبّل رقبتي كثيرًا وهو يخفُّ أذني، وهو يقسم أنها أجمل مناطق جسدي.

حرّم على نفسه نصفي الأسفل وهدهد بذلك ضميره، أعطاني يومًا سيجارة دخنتها وأنا أتلذذ بكوني شهيدة.
عندما أعلنتْ ابنتي أنها انضمت لجمعية نسائية ضد التحرش وزنا المحارم، انتفضت !
لماذا تفكر في هذا ؟
ظننت أني حميتُها جيدًا، منعت عنها الأخوال والأعمام والجدود وطُلقتُ من أبيها.
فمن لمسك يا صغيرتي دونما أعلم ؟

لا ألوم رجل سورة يوسف، ولا الآخر الذي جعلني ألمس عضوه حتى يفرغ ما به، ونصحني أن أمارس العادة السرية؛ حتى أحافظ على

عفتي وشرف العائلة، على الأقل هم تركوا لي عذريتي، وتركوني أحمل في طفلتي من رجلٍ ليس من محارمي ولا يربطني به دمٌ.

رجلٌ ما جعلته أبدًا يلجني، قالت الطبيبة إني مريضة بتشنجٍ مهبلي. تسلل منيّ زوجي في لحظة إلى داخلي ـ وهو على باب مهبلي عاجز ـ وتكونت ابنتي.

ابنتي التي حميتها جيدًا، لا ألوم أحدًا حتى عندما سألتني صغيرتي ـ كما علموها في الجمعية ـ عن إن كنتُ قد تعرضتُ للتحرش من قبل؟ نهرتها! وأجبتها بأن تلك الأشياء إنما تحدث للآخرين وليس لمن هي مثلي.
المجد للصمت! المجد للستر! المجد للرمال؛ التي ابتلعت رأسي طويلاً، وتركت فرجي عاريًا يعلوه شعرٌ كثيف !

" تمت بحمد الله "

قـراؤنا الأعزاء .. تحقيقاً لحلم التواصـــل بين الكـاتب والقارئ ودور النشر ، والاهتمام بمعرفــة رأيك دائماً ننتظر أن تتــواصل معنا لتقييــم أعمالنـا عبر الإيميــل ، أو عبر صفحــات مواقع التواصل الاجتماعي ، من أجل تحقيق حلم بناء جيل واعي ونشر بذور الثقافة بالمجتمع والمناداة بتنشئــة عقول أساسها الثقافــة والعلم .

شهرزاد للنشر والتوزيع

E-mail: shahrazadpub@gmail.com
facebook: Shahrazadpub
shahrazadpub2015
twitter: shahrazadpub

للشراء عبر صفحة البوك ستور الالكترونى :

صفحتنا على الفيس بوك: شهرزاد بوك ستور